كتب ثقافية

الزهاوى

شاعر الحرية

١٨٦٣ — ١٩٣٦

بقلم

انور الجندى

كتب ثقافية
الكتاب ٣٨

الزهاوى

شاعر الحرية

١٨٦٣ — ١٩٢٦

بقلم
انور الجندى

تصـــــدير

منذ ربع قرن خلف جميل صدقى الزهاوى دنيـانا • وقد جاوز السبعين فما ذكره خلال هذه التاريخ الطويل الذىأوشك أن يكمل ربع قرن من الزمان ذاكرا الا بضع محاضرات ألقيت فى معهد من المعاهد العالية وفصل أو فصلين فى مجلة هنـا أو هناك • واذا كان الزهاوى قد لقى الاغضـاء من الرجعيين أو الجامدين فلماذا نسيه المجددون وحملة ألوية الفكر الحـر الناهض • واذا كان أبناء عصره وجيـله قد غضوا من قدره فما باله اليوم وقد ظهر جيل جديد فى العـالم العربى يؤمن بتقدير الاحرار من رجال الفكر وحملة المشـاعل فى طريق التجديد والبعث • هؤلاء الاحرار الذين اذا ذكروا كان جميل صدقى الزهاوى ـ بلا مجاملة أو مبالغة ـ من أوائلهم ورواده فهو شاعر الحرية الذى احتمل فى سبيل دعوته عنتا شـديدا وهجوما عنيفا • وهجاءا قاسيا • واذا ذكر شـعراء عصره فى مجال التجديد والجـرأة والاندفاع نحو أهـداف الحرية والتجديد ، لم نجد من يستطيع أن يسبقه أو يلحقه أو يقف فى صفه •• فقد كان شعراؤنا فى مصر وسوريا ولبنان والعراق ـ فى الاغلب ـ مجاملين يسيرون فى ركب الامـراء محافظين متقيدين يقفون فى الوسط فى معترك التجديد والتقليـد ••

ولايمكن ان يكون شوقى أو حافظ أو مطران أو الكاظمى او الرصافى قد طالب بحرية الكلمة أو اندفع فى جراة الزهاوى ليطالب بتحرير المرأة أو تنقية العقيدة أو تحطيم الاصنام أو الدعوة للقومية العربية أو مهاجمة الخلافة العثمانية أو الحكومة الفاسدة أو طغيان الامراء أو استبداد الملوك أو اجرام المستعمرين ٠

ومع هذا فقد لقى جميل صدقى الزهاوى بعد موته نفس الهوان الذى لقيه فى حياته فلم يذكره الا القليلون ولم يكتب عنه بعض ما كتب عن شوقى أو الرصافى أو مطران ٠

وعندما أخذت أدرس حياته بحثت عنه فى مطبوعات دور النشر الكبرى فلم أجد عنه فى أبواب الاعلام دراسة ولا فى باب الشعر ديوانا ٠٠ ولا فى أبحاث الادب رسالة ٠٠ ولولا فصول منثورة كتبت فى الهلال والكتاب والرسالة وفى مؤلفات الريحانى وروفائيل بطى وشوقى ضيف ولويس شنجر وأنيس المقدسى والزيات ٠٠ لكان من العسير أن يجد المؤرخ ما يضىء أمامه الطريق لحياة هذا الشاعر العملاق الذى كنا نصافح شعره سنوات ١٩٣٢ وما بعدها فى الرسالة فنرى ذلك الوهج القوى اللافح فى جرأته وحرارته وايمانه ٠٠ وهو فى ذلك الزمن لم يكن الا فى شيخوخته ٠٠ كان فى السنوات الاخيرة من عمره المديد ٠٠ وقد هدته الامراض ٠٠ ومع ذلك فقد كان حيا دافقا يملأ النفس ٠٠ ويذكر بعظمة المتنبى

والعرى مختلطة ممتزجة .. الاول فى كبريائه واعتداده والثانى فى شكوكه وتحرره ..

ولقد كان من الطبيعى أن يجىء اليوم الذى يثير الزهاوى ثورة جديدة فى الشعر العربى والفكر العربى وان يدت أهدافه واعانيه ورؤاه اليوم وقد تحققت الا انه مايزال رمزا على معنى الجرأة والقوة والحيوية الدافقة .. انه سيظل منارا فى الفكر العربى يهدى الى غاية جديدة لم يكن يعرفها الشعر العربى من قبل وان يكن مطران قد جدد المعانى فان الزهاوى قد جدد المعانى واعطى الشعر معناه الحق فى الكلمة الخالدة « ديوان العرب ».

عصر الزهاوى

عاش الزهاوى سبعين عاما من عمر العراق والامة العربية فى فترة من أخطر فترات هـذا الشرق ·· هى مرحلة التوثب والصراع والانتقال من استبداد تركيـا العثمانية الى ظلم الاستعمار البريطانى ·· عاش هذه الفترة الضخمة يقظ القلب حى الوجدان ·· متأثرا بالاحداث ·· مسجلا لها ·· ولم يقف عند هذا شأن الشعراء ·· ولكنه كان صـادقا يدعو قومه الى كل جديد ، لا يمل الحداء ولا النداء ولا الدعـوة مهما اغضب الناس ومهما أغضبه الناس ·· انه ذلك الداعى العنيد الذى يتلقف كل جديد من الرأى فينقله شعرا ويدعو اليه العـراق والعرب ·

وقد شب الزهاوى عن الطوق ابان الاحتـلال البريطانى لمصر وهزيمة عرابى ·· فى نفس الوقت الذى كان العـراق يرزح تحت سلطان طاغ هو سلطان العثمانيين ، الذين يكرهون العرب ويسومون جزءا كبيرا من الامة العربية استبدادا مرهقا عاصفا · وكان عبد الحميد اذ ذاك يقبض بحفنة من الجواسيس على رقاب العباد ويحصى عليهم أنفاسهم ·

وسرعان ما خلف الزهاوى مدائحه للسلطان ، عندما بدت معالم دعوة أحرار تركيا الى مقاومة اسـتبداد عبد الحميد ،

وراح يمضره وابدا في شعره الحرية داعيا الى الحضور .. ثم تطور به الزمن الى الحضور الحماسي و التفجر وجاء في قصيدته الحمامة وهنا نرى الزهاوي في منتصف الطريق فرحا مبتهجا .. يحيي للحرية ويحيا للعراق ومتطلعا الى فجر جديد في حياة الامة العربية ثم لا تلبث الدعوة الى القومية العربية ان تعلن حتى يصدر فيها ويهاجم احمد جمال الشلاح الوثني ثم نرى في شوقي بعد ان علق على المشانق الاتراك شهداء من ضحوا في سبيل الاتراك للدعوة الى انفصال العرب عن الترك ومعلوم ان الحملة انعرضت لتشريك العرب باسم الجامعة العثمانية .

فاذا بدأ العراق يدخل في عهد جديد بعد ثورته ذاتيه نرى الزهاوي يدعو الى الحضور والبرلمان والحكومة وحريه الصحافه والاستقلال وتحرير المرأه .. ويضم صوته الى الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي ويشارك فيه مشاركه فعالة .

وهو في هذه المرحلة الطويلة يهدر بالشعر قويا حيا ذاخرا بالانفعالات ، فيه صورة ذلك القلب الذي يتحرق الى حريه قومه من أسر الاستبداد والاستعمار و الخرافات والاوهام والجمود .

وهو طوال هذا الزمن يدافع عن دعوة الحريه والتجديد في قوة .. ويكرر ما يقول أحيانا .. ويدفع في حماسة بالغة .. وقد يكبو .. وقد يخطيء .. ولكنه لا يتوقف أبدا ولا يصمت أبدا .

وقد يكون شعره نظما .. وقد يكون أقل جودة من شعراء عصره ولكنه يتفوق عليهم جميعا في أنه يحمل مضمونه معاصر

قهية .. وآراء جديدة .. وحركة دائبة .. وانه يدعو ولا يمل الدعاء الى الحرية .. ويصرخ ولا يمل الصراخ مدافعا عن الجديد ... وينادي ولا يتوقف عن المناداة باسم العراق الحبيب الى نفسه ونفوس العرب جميعا . وقد عاش هذا الزمن كله طوال أيامه عابسا متشائما شاكيا ساخطا مسرفا في العبوس والتشاؤم .. غير متوقف عن الشكوى والسخط ذلك ان نفسه الكبيرة وحبه للعراق وايمانه بالحرية وتطلعه الى فجر مشرق يرى فيه العرب وقد أصبحوا في مقدمة الركب . كل هذا كان يشعره بأن التطور بطيء وان التقدم وأن .. وان ما يتطلع اليه من أمل مايزال بعيدا . أضف الى هذا أنه كان يحس بعد أن ارتفع به السن انه لم ينصف في قومه ولم يكرم في وطنه .. ولم يأخذ مكانه الحق .. وان حملات النقد العاصف وكلمات الهجاء المرير كانت تنتاشه من هنا أو من هناك . ونسي انه لم يكن شاعرا يغرد فيجتمع حوله الناس ليصفقون له ، وانما كان داعية يحطم قديما باليا .. ويمزق تقاليدا تعارف عليها الناس بالحق أو بالباطل طويلا. وانه كان يدعو الى جديد تنظر الجماهير اليه في خوف وقلق واشفاق ، وان من شأن من يتصدى لهذا أن لا يجد من عامة أهل جيله الا المعارضة والخصومة .. وقد كان يستطيع أن يدع هذا وأن يعيش مادحا ومغردا وسائرا في كل ركب ، عندئذ كان يجد من عامة الناس الرضى والاعجاب والتصفيق ، أما وقد اختار لنفسه الدعوة الى الحرية والخلاص من أسر التقليد ..

والظلال القديم .. وقيود الجمود .. فلم يكن من المتوقع أبدا أن يواجه الا بمثل ما وجه به على أن الزهاوى يفسر الان فى قبره راضيا حين يرى أن دعوته دفعت العرب جميعا الى الفجر الصادق .. فبدت علامات الحرية الحقة ترتسم فى الافق .. والاوطان تتخلص من المستعمر ، والمجتمع يتقدم ، والمرأة تأخذ حقها فى العلم والسفور والعمل فتشترك فى كبريات الاعمال وتدخل البرلمان وان علامات الجمود والتقليد والبدع فى محيط الدين قد تراجعت وحل محلها اجتهاد وتحرر وعودة الى المنابع الصافية للعقيدة .

وليس شك أن صيحة الزهاوى وثورته المتصلة ودعوته التى امتدت خلال حياته أكثر من أربعين عاما كان لها أثرها فى التطور .. ومكانها فى تاريخ حركات البعث والتحرر .

مطلع الشـــباب

ولد الزهاوى (١) فى يوم الاربعاء ١٨ من شـــهر يونيـو (حزيران) عام ١٨٦٣ فى بغداد وكان والـده محـــمد فيضى الزهاوى مفتى العراق ٠٠ وأخوه فقيه من فقهائها ٠٠ ويرجع نسبه الى أمراء السليمانية الذين يرجعون الى خالد بن الوليد وترجع شهرته بالزهاوى الى أن جده هاجر الى «زهـاو» من أعمال ايران فأقام فيها ٠ وتزوج منها بسيدة زهاوية ٠

أما أم المترجم له فسيدة من أسرة عريقة فى المجـــد غير انها كانت عصبية المزاج ولا تذعن لرأى أحد (٢)

ومن هذا تنكشف لنا حقيقتان : الاولى انه نشأ فى محيط الفقه والدين وكان والده واخوه يريدانه صاحب فقه وقضاء ٠ فاندفع خارج هذا المحيط بل لم يلبث أن هاجم هـذا المحيط بثورة على الفقهاء ورجال الدين وهذا اتجاه طبيعى بالنسـبة للزهاوى العنيد من ناحية وبالنسبة لرغبتـــه فى التبرير عن

١ ــ زهاوى زاده جميل صدقى افندى كما ورد اسمه فى الكتب القديمة

٢ ــ من رسائل الزهاوى الى أحمد محمد عبيش ٠ ملحق السياسة الاسبوعية ٧ يناير ١٩٣٢ .

طريق مخالف لطريق أبيه وأخيه والأخرى .. ان أمه كانت عصبية المزاج ولا تذعن لرأى أحد - وقد ورث الزهاوى منها هذا الطبع وعرف به .

يقول الزيات : كان أهله يريدونه صاحب قضاء وفقه ، ولكن عناده دفعه أن يديم النظر فى الأدب .. ثم بدأ ينظم الشعر فكان صاحب دعوه ومدرسته وان الاستعداد الموهوب فى الطبع وهو مسيته الخاص فى نحتى - جعل من الزهاوى أبا العلاء وقد كان أهله يريدونه أبا حنيفة .

ويرد بعض المؤرخين جراءه الزهاوى فى عرق العم والخال من الكرديه .

وقد تعلم الزهاوى تعليما دينيا .. فقد ذهب الى الكتاب فى سن الخامسة ومكث فيه لبضع سنوات بليدا لا يتعلم ولا يهتم بغير اللعب ونظم الاشطر الفارغة من المعانى .

وكان كثير الحركة محبا للعب أكثر من اخوته وأترابه .. متمردا لا يذعن لرأى .. يقول الزهاوى فى رسالته (١): كنت فى صباى أدعى بالمجنون لحركاتى غير المألوفة .. وفى شبابى بالطائش لخفتى وايغالى فى اللهو - وفى كهولتى بالجرىء لمقاومتى للاستبداد - وفى شيخوختى بالزنديق لجاهرتى بارائى الحرة الفلسفية .

وقد تعلم كثيرا من علوم الاولين فلم يشبع عقله - واستطاع أن يقرأ كثيرا مما ترجم الى العربية على أساتذة مختصين .

(١) رسائل الزهاوى - مجلة الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧

ثم قرأ عن الفارسيه والتركية بعد أن أجادهما ومعنى هذا أن علامات الثورة ولدت مع جميل وأن روح التمرد وعدم الاذعان لاحد ٠٠ كانت من أول ملامح صباه وقد ظلت عنده العوامل تتفاعل فى نفسه طوال حياته ٠

ولعل أمرا آخر كان له أثره فى تكوين طبيعة الزهاوى وشخصيته : يقول الزهاوى (١) كانت والدتى تعيش مع أولادها فى بيت منعزل عن بيت والدى فنزعنى والدى من أحضانها دون اخوتى واخواتى ٠٠ وأخذ على عاتقه تربيتى تربية خاصة متبعا هواه ٠ وكان من هواه الادب ٠٠ وكان شاعرا فى الفارسية والعربية معا غير أنه مقل فيهما ٠

ولعل هذا الحادث له أثره فى نفسية الزهاوى ٠٠ فان انتزاعه من أمه دون اخوته لابد ان ترك فى نفسه احساسا بالالم والضيق أضيف الى عوامل نفسه فزادته ثورة وقلقا واضطرابا

ثم ابتلى جميل فى الخامسة والعشرين من عمره بداء النخاع الشوكى الذى لازمه بقية حياته ولم يلبث بعد ذلك أن أصيب بالشلل فى رجله ٠

ويقول أحمد محمد عيسى (٢) ان جميل حفظ جزء «عم» بعد ثلاث سنوات ٠٠ ثم قرأ جميع أجزاء القرآن وحفظ منها ما استطاع وتفتح ذهنه شيئا فشيئا ٠٠ وقرأ على بعض العلماء مبادىء الصرف والنحو والمنطق ٠٠ وقليلا من البلاغة ٠٠ ولما

(١) رسائل الزهاوى ٠ مجلة الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧
(٢) السياسة الاسبوعية ـ ٧ يناير ١٩٣٢

رأهم لا يشبعون جشعه ·· ولا يرون غلته ·· ولا يقنعونه بأجوبتهم على أسئلته العويصة عن الالوهية وما شاكلها رجع الى أبيه غضبان أسفا ·· قائلا له :

هؤلاء شيوخ جامدون

قال والده : وين تك يا بني أنت ومن على شـــاكلتك من الشيوخ الجامدين ··

وهذه هي أول معالم الثورة ·· ولابد أن ذلك كان في سن العشرين أي عام (١٨٨٣) وهنا التاريخ عندما بدأ حيـــاة الزهاوي الادبية وعلامة الطريق الطويل الشاق الذي قطعـــه محملا بورانياته وعوامل بيئته ·

ولقد كان والده يشفق عليه من ثورته ونزعته الجريئة الى التمرد · ويروى انه استدعى ابنه اليه في ليلة من ليـــالي الشتاء الباردة ·· كان قد أهداه عباءة جميلة ·· وقال :

ـ ألبس ·· ياجميل عباءتك فاني أخاف عليك البرد

ورد جميل على طريقته المتمردة الجريئة :

ـ يا أبي انى لابس الغرفة فمن أين يتسرب البرد الي ·

وصمت والده ولم يزد على أن نظر اليه فرأى بريق الذكاء الحاد ينفذ من عينيه الواسعتين وقد رفع رأســـه الكبير في زهو وثقة ··

وقد قسم جميل شبابه بين اللعب والقراءة ·· كان يلعب بالكعاب ثم بالحمام القلاب فيطيره أسرابا في الهـــواء · كما أولع بركوب الخيل فكان يسابق ويسبق كما أحب لعبة الدامـا

وقد ألف فى هذه الالعاب رسائل نشرها فى المقتطف والهلال ·

ومن ناحية أخرى أكب على قراءة المتنبى وتفسير البيضاوى وغيرها من المؤلفات الضخمة التى كانت تحفل بها مكتبة أبيه

وقال الزهاوى فى بعض كتاباته (١) طالعت فى شبابى مؤلفات الدكتور فانديك المطبوعة فى بيروت وكتابى أصول التشريع والفسيلوجيا لورتبات · وبضعة مجلدات من المقتطف كانت قد نشرت يومئذ فحصل لى بسبب هذه الكتب الاطلاع على أساسات العلوم العصرية ، ثم توسعت فى هذه العلوم فى كهولتى بمطالعة كتب مترجمة الى التركية · وأكثرت من قراءة الروايات يومئذ من الفرنسية الى التركية ·· فحصلت على شىء قليل من العلم بعادات المجتمع الغربى وأفكاره منها البؤساء لهوجو فى مجلدين ضخمين · ولم استغن حتى اليوم عن مطالعة الكتب المترجمة الى العربية أو التركية ·

---

(١) الكتب التى أفادتنى مجلة الهلال ـ ١٩٢٧

حيـــاته

من الاعلام من تكون حياتهم خطا واحدا مستقيما لا أحداث فيه ولا تقلبات ومنهم من تضطرم حياته بالاحداث صـاعدة هابطة · دافقة مندفعة · هادرة لا تتوقف ولا تسـكن · ومن هؤلاء جميل صدقي الزهاوي فقد كانت حياته الطويلة حافلة متحركة وهي الى ذلك خصبة غنية فيها الجديد دائما وفيهـا الصراع والارتطام والاختصام لا يتوقف ولا يهدأ ولا يلين ·

والزهاوي منذ اليوم الاول حتى اليـوم الاخير هو : الثائر المتمرد الجريء الذي يعارك ويخلق ميادين المعـركة ويواجه الناس بالجديد والغريب مما يغيظ ويثير ·

قلمه هو متنفس حياته ·· ونافذة روحه ··

ولقد ذهب الزهاوي شمالا وغربا وشرقا ·· وعمل في أكثر من عمل · وهو بطبيعته القلقة لا يقـر ولا يتـوقف · وانما يتحرك ويتحرك دائما ·· عينته الحـكومة التركية في أول شبابه عضوا في مجلس المعارف ببغداد ثم مديرا لمطبعة الولاية ومحررا للقسم العربي من الجريدة الرسمية «الزوراء» ثم عضوا في محكمة الاستئناف ثم عين عضوا في مجلس المبعوثان عن بغداد ولما أعلن الدستور عين أستاذا للفلسفة في المكتب الملكي بالاستانة ثم مفتشا للاداب العربية في دار الفنون ثم عاد الى

بغداد فعين أستاذا للشريعة فى كلية الحقوق ثم نائبـــا فى مجلس الشيوخ العراقى ·

وفى خلال ذلك سافر الى مصر وسوريا وذهب الى اليمن بارداة سلطانية « واعظا عاما » وعضوا فى الجمعية الاصلاحية وبقى فيها تسعة أشهر ·

وهاجر الى سوريا ومصر · وأقام بالشام وبيروت فترة ثم عاد الى العراق

هذه ملامح الصورة العامة لحياته العملية ولكنها تحـوى أغوارا بعيدة المدى فانه لم ينس خلال حياته هذه شعره ولا أدبه كان ينشر فى المجلات والصحف فى مصر وبيروت والشـــام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة أيام الاستبداد الحميدى بامضاء مستعارة ·

وعندما سافر الى استانبول اجتمع بالاتراك الاحرار وجهر بالسخط على نظام الحـكم القـــائم اذ ذاك · ونظم عددا من القصائد نشرت فى المؤيد· وعاش تتعقبه الجواسيس· وكانت النهاية أن سجن وحمل مقيدا الى بغداد ·

يقول الزيات (١) : رأى فى الاستانة عبد الحمـــيد يلقى الاحرار مغلولين فى غيابة السجن أو فى قاع البحر فأرسـل اليه مع أبى الهدى قصيدة قال فيها :

---

(١) الرسالة مجلد ١٩٣٧

أيأمر ظل الله في أرضـــه
بما نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مـــال وينفي مبرأ
ويسجن مظلـــوما ويسبى ويقتل
تمهل قليلا لا تغظ أمـــة اذا
تحرك فيهـــا الغيظ لا يتمهـــل
وأيديك ان طالت فلا تغتر بهـــا
فان يد الايام منهن أطـــول

فحبسه حينا ثم نفاه ..

وسمع وهو عضو في مجلس المبعوثان عن بغـــداد مقرر الميزانية يذكر في وزارة الحربية مبلغا جسيما من المال جعلوه لقراءة البخاري في الإسطول فقـال : أنا أفهم أن يكون هـذا المبلغ من وزارة الاوقاف .. أما الحربية فالمفهوم أن الاسطول يمشي بالبخار لا بالبخاري . فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة .

ولما دعاه الخليفة الى الاستانة ، أقض مضاجع الجاسوسية فانتقص أمره وساء مقامه .

ويروى الزهاوي في احدى رسائله الى أحمد محمد عيشي أحرج ساعات حياته يقول : ان أحرج ساعاتي هو يوم هـاج الشعب العراقي على عام ١٩١٠ لمقـالة شديدة نشرتها في « المؤيد » في الدفاع عن المرأة حتى اني قبعت في داري أسبوعا ولم أخرج منها خوف اغتيال الشعب المارد لي . وعزلني يومئذ والي بغداد ناظم باشا من وظيفتي في مدرسة الحقوق ببغداد

وقد تزوج الزهاوى فى سن الثلاثين بالانسة زكية هانم وعمرها يومئذ ١٦ سنة وهى من بيت تركى شريف ولم يولد لهما ولد وخدمته فى شيخوخى باخلاص وامانة (١).

وقد عاش الزهاوى (٢) بالرغم من الامراض والشلل والنوبات العصبية ، ظل الى ما قبل وفاته بيوم واحد وقاد الذهن قوى الذاكرة . وكان يحب المرح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعا .

ويصف الزيات الزهاوى . وقد عاش معه فى العراق أعوام ٣٠ و٣١ و١٩٣٢ وكان صديقه الوفى .. «لم تكد تلوح فى مخيلتى صورة الشاعر التى صورها السماع والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخا فى حدود الثمانين قد انخرع متنه وثقلت رجله ورعشت يده فهو لايحمل بعضه بعضا الا بجهد

والزهاوى يريدنه أن يتكلم كالبلبل خاصته أن يغرد .. فهو فى مجلس الصدقة ملك أو شاكر . وفى مجلس الادب محاضر أو شاعر وفى مجلس الانس مفكه أو محدث » .

كما صور الزيات منتداه بشارع الرشيد أو على ضفة دجلة وهو جالس على الدكةالخشبية ينشد الابيات الرائعة أو يرسل النكتة البارعة أو يروى الخبر الطريف فى بشاشة جذابه وقهقهة ساذجة .. ويده المرتعشة لا تنفك تعبث بسبحته الصغيرة أو تصعد وتهبط سيكارته العراقية .

(١) رسائل الزهاوى : الكاتب المصرى . يناير ١٩٤٧

(٢) سليم طه التكريتى . مجلة الكتاب . يونيه ١٩٤٩

كما وصف عمره في (الصابونجية) وكيف كان يحدثه أنه قضى الليل ساهرا يقرأ .. وداعة عظيم .. القصص والمجلات منتشرة على سريره وعلى مقعده .. المسودات مدسوسة تحت مخدته أو في ثيابه ..

يقول لنزيات : انظر كيف اذهب عمري في شعوري .. والامة تقذفني بالبهتان .. والحكومة تخرجني من مجلس الاعيان .. والملك يستكثر علي أن اكون شاعر البلاط .

.. ثم لا يلبث أن يقول : سأذهب وستبقى أشعاري تعبر عن شعوري نطقة بالآمي فهي دموع ذرفتها على الطرس وهي خليقة أن تبعث من عيون قارئي دمعة هي كل جزائي عن نظمها

شـــعره

اشتغل الزهاوى بالنثر والشعر ولكنه برز فى الشـــعر وعرف به وأطلق عليه لقب (الشـــاعر الفيلسوف) وقد بدأ حياته كاتبا ولكنه تفرغ للشعر بعد قليل واقتصر عليه . وان كانت محاولاته الاولى فى الشعر بدأت باكرة وســـاذجة .. يقول الزيات : لم يعرف الشعر الا بعد أن علت به السن .

ويقول فى رسائله الى محمد أحمد عبش (١) : ان والده كان شاعرا فى الفارسية والعربية معا وان كان مقلا فيهما .. ومن شعره فى العربية قوله :

لا تدع فى حاجة بازا ولا أســـدا
الله ربـــك لا تشرك به أحدا

يريد بالباز عبد القادر الجيلى . وبالاسد عليا بن أبى طالب كما كان يلقبهما به الجمهور فى العراق .

ويقول : وأتذكر أنه ـ أى والده ـ كان فى طفولتى يعدنى بدرهم اذا نظمت شطرا واحدا من الشعر موزونا . وان لم يكن له معنى . وقد كسبت الجائزة مرارا فكان فى ذلك جـــزل

---

(١) ٧ يناير ١٩٣٢ ـ السياسة الاسبوعية

والذى . اما جذلى اما فكان فى الحنـوى التى كنت اشتريها بذلك الدرهم .

وقد تناول الزهاوى فى شعره السياسه والاجتماع والغـزل والعلم والفلسفة .

أصدر عـدة دواوين : الكلم المنظوم بيروت ١٩٠٨ . ديوان الزهاوى : القاهرة ١٩٢٤ ، رباعيات الزهاوى : بيروت ١٩٣٣ اللباب : بغداد ١٩٢٨ ، الاوشال : بغداد ١٩٣٤ ، الثمالة : بغداد١٩٣٩ ، ترجمة رباعيات الخيام من الفارسية بغداد ١٩٢٨

وله ديوان نزعات الشيطان مجموعه من القصائد لم تنشر بعد فى المجلات والجرائد .

يقول الزهاوى : وسوف تنشر بعد موتى لانها تصادم آراء المتعصبين وتثيرهم على الثارة لا أحمد عقباها .

وقصيدة : ثورة فى الجحيم .. وعدد أبياتها ٤٣٣ بيتا ونشرت فى مجلة الدهور فى العام الماضى .. وكانت تصدر فى بيروت . يقول الزهاوى (١) وقد قامت حولها ضجة كبيرة . وقد سبنى بسببها بعض المتعصبين على المنابر فى خطبـة الجمعة . ونفذت بعد قليل من الزمن نسخها .

يقول الزيات : نظم فى أعقاب عمره قصـيدة « ثورة فى الجحيم » فلما كلمه الملك فيصـل بشأنها قال : عجزت عن اضرام الثورة فى الارض فأضرمتها فى السماء .

وقال الزهاوى فى رسائله : أن أكثر شعرى الذى نظمتـه

(١) رسائل الزهاوى ديسمبر ١٩٤٦ الكاتب المصرى

قبل الدستور العثماني نشر في ديواني الاول الكلم المنظوم (١) كما كتب عليه هذه العبارة « نظمه ونشر أكثرها ابانها بامضاء رمزي في أشهر جرائد مصر يوم كان الاستبداد شديدا » .

وقد أوضح الزهاوي منهاجه الشعري في مقدمة ديوان الزهاوي الذي صدر في القاهرة عام ١٩٢٤ : قال في مقتطفات من هذه المقدمة :

الشعر ما ينظمه الشاعر من احساس يجيش في نفسه باوزان موسيقية فيهز به المسامع .. ولا أرى للشعر قواعد بل هو فوق القواعد .. ولا يتقيد بالسلاسل والاغلال .. وهو أشبه بالاحياء في اتباعه سنة النشوء والارتقاء .. يتجدد بحسب الزمان ويرتقي من الادنى الى الاعلى .. وأنزع أن أمشي بشعري في سبيل الحياة الطبيعية متجنبا المبالغات وما أخلق الشاعر بان يخرق التقاليد التي ورثها الابناء عن الاباء فيقول ما يشعر به .. ولا يشعر به اباؤه .

ومازلت في جو من الفكر طائرا
ومن عدتي أن لا أطير مع السرب

ولا أرى مانعا من تغيير القافية بعد كل بضعة أبيات من القصيدة .. عند الانتقال من فصل الى آخر .. كما فعلت

---

(١) طبع في المطبعة الاهلية ببيروت وآخر قصائده مؤرخة بغداد في ٧ أغسطوس ١٩٣٢م

في عدة قصائد ، لا دفعة مثل المستمع من سماع القافية الواحدة في كل بيت .. بل اراحة للشاعر من كد الذهن لوجدانها. واجيز للشاعر أن ينظم على أى وزن شاء سواء كان من أوزان الخليل أو من غيرها. و لشاعر الحر شجاع لا يهاب في الصدق لومة اللائمين ، الا اذا أحس بالمهلكة فعندئذ يمسكت أو يكذب. ونزاع الى التجديد . ينور على النظام . ويتمرد على السلطان الكذب .. يريد كل يوم أن يمرق عن العـــادات . ويمزق أطمارها البالية كالفراشة التي تخلع عن نفسها لتبرز في ثوب أجمل معبر بألوان السماء .

٢ ــ الجديد .. الجديد .. هو أحسن ما تنزع اليه النفس الوثابة ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما النظر .

سئمت كل قديم عرفته في حياتي
ان كان عندك شيء من الجديد فهات

ولا أريد بالتجدد أن يقلد الشاعر العربي شعراء الغرب في شعورهم .. فان لكل أمة شعورا خاصا بها لا تحس به أمة أخرى .

لا أقول أن يحمد الشاعر العربي على ما هو عليه الشـــعر اليوم .. بل الاحجى أن يترقى شعر كل أمه في سبيله

ولا يسوغ للشاعر العربي مخالفة قواعد اللغة . وللشاعر الفحل أن يولد في اللغة اذا مست الحاجة كلمات لم يات بها من جاء قبله .

٣ ــ وجدت الذين يمارسون الادب ثلاثة

الاكثر عددا من لايستحسن من الشعر الا ما الفـه من

من القديم وانتقل اليه بالوراثة من العصـــور الماضية ..
والشعراء المسايرون للجمهور ينالون حظوة منهم

◆ المتشرب مخه من الادب الغربى لاينزع الى الشعر العربى
الا على نسق مايقول شعراء الغرب . ومثل هذا قد خرج من
نفسية قومه واندمج فى غيرهم .

◆ قليل يسير مع رقى العلم جنبا الى جنب . ويستحب
الشعر خلوا من المبالغات منطبقا على الطبيعة مع المحافظة على
الشعور العربى الذى هو قوام شخصيته . والاخلق الا ينتظر
الذى له نزعة التجدد أن يكبر شعره الجمهور من جيله الا اذا
كان الجمهور منحطا قد تعود القديم .. والمشاعر الذى يساير
شعور الناس فيما ينظم ينال اقبالهم على شعره مادام الشعب
جامدا . أما اذا تقدم الشعب ، فان شعره يموت ويأخذ مكانه
الشاعر الذى يتجدد مع جيله ..[1]

وقوام رأى الزهاوى أن هدف الشعر عنده هو التجديد ..
دفع المشاعر الى الحرية الفكرية والاصلاح . وحمل الجماهير
على الانتقال من الجمود الى الحياة .

وقد كان الزهاوى شاعرا له هدف ورسالة وغاية يحمل
عبء البعث فى حدود قوله : تمزيق العادات البالية دون أن
يثير غضب الجماهير أو هجائهم .. بل انه يرى أن الجمهور
يكبر الشاعر المجدد الا بعد أن يموت ويأخذ مكانه بين الشعراء
قال : (٢) غنيت لابناء وطنى لانى أريد ارقاء عواطفهم .. فلما

(٢) مقدمة ديوان الزهاوى ١٩٢٤

فتحوا عيونهم شقوني ، ثم غنيت فحدوا يغنون الى شذرا
ثم غنيت فيشجوا ثم صمتوا وبقى فيهم من يسمع . وحبب
وساعتي الى ان يسكتني الموت ، وسوف يبقى للغاني معبره عن
شعوري وما كابدته في حياتي من شقاء واضطهاد ، فهي دموع
ذرفتها يراعتي على الطرس وصفحه بالدامي .. وهي حقيقة بان
تذرف من عيون قارئها دمعة هي كل جزائي من نظمها .

ويرى الزهاوي ان شاعر الاجيال لا يموت شعره لانه يبنيه
على الحقائق الخالدة .. وهو في الغالب يسبق جيله ، ولا أراه
مستفيدا من المستقبل الذي يجمع أهله على اكباره لانه يكون
يومئذ تحت أطباق الثرى بينما لايسمع هتاف الهاتفين له ..
والزهاوي في هذه العبارة يعني نفسه . ويرى أنه قد سبق
جيله وانه لم يلق الجزاء من أهل زمنه . ولم يستهدف الزهاوي
من شعره كسبا أو نفاقا قال :

شعري ما أردت ان أكسب به مالا .. أو اتزلف على احد.
فما رثيت الا من كان صديقي . ولا حمدت لا من ظننت فيه
خيرا للبلاد . وربما خاب ظني في بعضهم فكففت .

ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأن الزهاوي جرى مجرى
القدماء في المدح والرثاء والهجاء . وهو في هذا مجدد بالمعاني.
مقلد بأساليب القدماء وأبواب القول عندهم .

ويصور الزيات الزهاوي الشاعر في قوله : كان فكره أقوى
من خياله وأسمى من عاطفته وهو من شعراء الفكرة له البصيرة
النافذة . وليس له الاذن التي (تموسق) الموسيقى .. ولا
القريحة التي تصنع .. فاللفظ قد لا يختار .. والوزن قد

لايتسق والاسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحية لتجربته تعج بين الابواب المتخاذلة عجيج الامواج المزبدة بين التواطىء المنهارة .. ويرى الزيات أن الزهاوى عقلية أفاقة وحيوية دفاقة وطبيعة ساخرة .. وهذا التوثب الحماسى هو الذى جعله يؤثر النظم فى تقييد خواطره .. وهذه الحماسة قد تنبو أحيانا عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها .. فيذهب الشاعر ولا يبقى الفيلسوف .

ويقول الزهاوى فى بعض رسائله أن شاعريته بدأت وهو فى سن الخامسة عشرة .. ومن أوائل شعره :

أما آن أن تأبى على الوطن العارا
فنركب أخطارا ونقضى أوطارا

وقد ترجم الزهاوى شعرا عن توماس هاردى ونشره فى الهلال عام ١٩٢٩ ..

وتعد قصيدة « ثورة فى الجحيم » من أهم شعر الزهاوى فهى مؤلفه من ٤٣٣ بيتا فى قافية واحدة نشرها عام ١٩٢٩ فأحدثت ضجة وقد ساير فيها (رسالة الغفران) وتأثر بها تأثرا واضحا فى الفكرة والمشاهد . كما تأثر بدانتى فى الكوميديا الالهية . وأخذ من (هوجو) العبارات التى سدقها على ألسنة الملاك الذى اتخذه رمز البوءة .. وخلاصة ملحمته أن الشاعر يموت ويودع فى القبر فيظهر منكر ونكير ملكا الحساب .. فيجرى بينه وبينهما حوار حول العقيدة والحياة والدين والإيمان وتفاصيل العبادات والفروض الدينية . وقد عرض لهذا كله فى سخرية وتهكم شديدين .

وهو يؤمن بنفسه كشاعر ومجدد وان لم يكن زعيما :

انني منذ كنت أشدو بشعري
كان يوحي الي بالتجـــديد
أنا لا أدعي الزعـــامة فيه
غير أني أبث فيه وجـــودي
جعلا الليـــل والنهار يعيني
انني مغـــرم بكل جديد
وجديد الفـريض قرب معـــانيه
وبعد نه عن التعقيـــد

ولقد أحب الزهاوي وقال شعرا عاطفيا رائعا :

نظرت اليها وهي بيضـــاء تبهج
تجد به ماء الصـــبا يتوهج
مشت ومشى قلبي المتيم خلفهـــا
يقبـــل آثار الخطى حيث تنهج
لها وهي أدرى العـــالمين بحالتي
هوى في فؤادي ناره تتـــأجج
أريد اذا قابلتهـــا لابثها
غرامي بها لكنني أتلجـــلج
تمنيت ياسلمى وهل ينفع المنى
لو ان حيـاتي في حيـــاتك تمزج

الزهـاوى المجـــدد

أجمع مؤرخو الزهاوى على أنه شاعر مجدد وانه جدد فى اربعة أمور :

- مكافحة العادات والتقاليد البالية والدعوة الى التحرر والتجدد والاصلاح الاجتماعى ·
- مناصرة المرأة والدفاع عن حقوقها
- ادخال النظريات العلمية ، والافكار الفلسفة المستحدثة في الشعر ·
- التحرر من قيود اللغة واستعمال المصطلحات العلميـه ومزاولة الشعر المرسل

وقد ثار الزهاوى على القديم جملة ·· فى الفكر والسياسة والاجتماع ·· وثار على الحكام المستبدين والطغاة الظالمين · ونقد سلاطين آل عثمان وولاتهم مما أدى الى سجنه ونفيـه ومحاربته فى رزقه ·

قال فى السلطان عبد الحميد الثانى وقد نفي بسببها من الاستانة عام ١٨٩٧

لقد عبثت بالشعب أطمـــاع ظالم
يحمله من جوره ما يحمـــل
فيا ويح قوم فوضوا أمر أنفسهم
الى ملك عن فعـــله ليس يسـأل
الى ذى اختيار فى الحكومة مطلق
اذا شـاء لم يفعل وان شـاء يفعل

وما أعتقد أن شاعرا فى الشرق العربى فى هذه الفترة قاوم السلطان هذه المقاومة أو عارض الحاكم الظالم على هذا النحو

وقد كان الزهاوى حفيا بنظريات الكون والوجود والجاذبية والنسبية والتطور والفلك والكهرباء . وضرب فيها بسهم وافر من منظومه ومنثوره .

وقد درس الزهـــاوى نظريات داروين فى التطور ونيوتن فى الجاذبية وانشتين فى النسبية وضمن شعره هذه الاراء . وهو أول شعراء العرب الذين عنوا بهذه الموضوعات .. بل هو أول من أدخل المصطلحات الحديثة فى الشعر العربى فترددت فى أبياته كلمات الاثير والالكترون والبروتون والكهرباء . وكان ذلك منذ أكثر من خمسين عاما .

وقد قال ناقدوه انه ما أن يقـــرأ حكمة أو نظرية أو رأى مستحدث حتى يعمـــد الى نظمه فيدخله فى شعره . وقالوا ايضا انه ليس للزهاوى رأى جديد فى كل ما قاله من شعره . وانما كان ترديدا لما كان يقال فى صـــحف مصر من أحاديث سلامه موسى وطه حسين وهيكل وغيرهم من المجددين .

ويصف الزيات تهالك الزهاوى على التجديد على أنه خوف عاصف من الاتهام بالجمود . كان الزهاوى كشوقى (١) حريصا على متابعة العصر ومسايرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد .. وحس مرهف يأنف التخلف .. ويزيد الزهاوى أن الفجر يزهاه وأن التيه يذهب به .. فيحب الثناء ويبغض النقد . وهو لفرقه من صفه القدم يسبق الكتاب الى التجديد . ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأى الى التطرف ولطمعه فى نباهة الذكر يجرى مجرى الخاصة .. ويعارض هوى العامة .. ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعا على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم .. وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين وتحقيرا للتأخر بمصادمة مألوف الامة .

ولعلنا نضيف الى هذا أن الزهاوى قد جدد الشعر بادخال عنصر الفلسفة اليه حتى وصف بأن الفكرة الفلسفية هى المادة الاصيلة فى شعره .

ويعزو بعض مؤرخيه نزعة التجديد فيه والدعـــوة الى الحرية (٢) الى ما تذوقه من نسمات الحرية فى الفترة التى أمضاها فى الاستانة .. حيث عاش فى جو تركه الفتـــاة والدعوة الى الدستور وجهاد مدحت باشا فى سبيله .. ولما تتلقفه من نسمات الحرية عن طريق الصحافة العربية فى المهجر ومصر ولبنان .

(١) مجلة الرسالة ١٩٣٧

(٢) سليم طه التكريتى : الكتاب يونيه ١٩٤٩

ولقد كان الزهاوي (١) يحب شعره ويعتز به ويراه رفيقه وخليله ويرى فيه عزاءه عند الملمات ومسلية عندما تعتـــوره الهموم .

يا شعر انك أنت صوت ضميري
بيديك حـــزني دائما وسروري
يا شـــعر أنت بكائي يوم كآبتي
وتبسمي يا شعر يوم حبـــوري
أنا أنت يا شعري وأنت أنا فمن
يدراك يقرأ سيرتي وســـعوري

ولقد ظل الزهاوي يكرر آرائه في كل شـــعره . ويصر على رأي قاله بالرغم من خصومة الناس له .. وهو في هذا يجيد اجادة ممتازة في بعض الاحيان ويكرر نفسه ويستطرد ويبدو مملا وضعيفا في أحيان أخرى .

وقد كره اللغة المقلديه والمحسنات البديعيه والمعضلة .. ولم يقف شأن الشعراء المعاصرين له عند المعاني العامة بل خاض معركة السياسة والحياة والمجتمع في قوة

هذا وقد سببت نزعة الزهـــاوي التجديديه له كثيرا من المتاعب والخصومات ولم يحتمل أهـــل وطنـــه جرأة آرائه

---

(١) محاضرات ناصر الحاني عن الزهاوي .

والدفاعة فردوا له الصاع صاعين

يانفس قد سبوك حين نصحتهم
هذا جزاء الناصحين فذوقي
قالوا اطردوا الزنديق من أوطانكم
ماذا يخاف القوم من زنديق
قالوا اقتلوه فانما هو مارق
ماذا يضر المؤمنين مروق
أنا لست زنديقا ولا أنا مارق
حتى يحل لطفركم تمزيقي

والزهاوي الشاعر المجدد له في الحب شعر عميق المبنى جديد في العرض تتمثل فيه طبيعته الحريصة على أن يقول ما لم يقله الشعراء من قبله :

أول الحب في القلوب شرارة
تختفي تارة وتظهر تارة
ثم يرقى حتى يكون سراجا
لذويه فيه هدى وانارة
ثم يرقى حتى يكون مع الايا
م نارا حمراء ذات حرارة
ثم يرقى حتى يكون أتونا
بحراراته تذوب الحجارة
ثم يرقى حتى يكون حريقا
فيه هلك لاهله وخسارة

ثم يرقى حتى يمثل بركانا
يرى الناس من بعيد ناره
ثم يرقى حتى يكون جحيما
عن تفصيلها تضيق العبارة

ومن أبيات تحديده انه نقل العلم والطبيعة والفلك والكائنات وتعليل الجاذبية الى الشعر . يقول فى قصيدته « سياحة العقل » :

لا تقبل الاجرام عدا
كلا ولا الابعاد حدا
العقل يرجع خائبا
فيها وان لم ينل جهدا
مسترشدا بعلومه
فيها اذا ما ضل يهدى
والعقل يعلم من سياحته التى أولته مجدا
ان المجرة لم تكن الا
عوالم فقن عدا
والسحب فيها انجم
من الشموس بعدن جدا
متحركات فى السماء
تخال ان لهن قصدا
متجاذبات لو تخلف
واحد عنها لأودى

وهو يعاود الحديث عن شعره في عديد من قصائده ويطالبك بالانصاف

ما الشعر الاشعورى جئت أعرضه
فانقده نقدا شريفا غير ذى خلق
الشعر ما عاش دهرا بعد قائله
وسار يجرى على الافواه كالمثل
والشعر ما اهتز منه روح سامعه
كمن تكهرب من سلك على عفل

وخلاصة رأيه في الشعر الجديد أن يتحرر بجميع أغراضه من أسر التقاليد الجامدة .. وان الاوزان بالنظريات التي وضعها الخليل ليست ملزمة وان التجديد يجب أن يشمل القوالب والمضمون .

الزهـاوى الناثر

اريد فى هذا الفصل أن أعرض للزهاوى الكاتب .. فقد خلف عددا من الابحاث والدراسات النثرية مما يدعونا أن نحلل معالم كتاباته . ومن هذه المؤلفات رسـالة الكائنات (١) فى الفلسفة أبدى فيها رأيه الحر فى المكان والزمان والقوة والمادة والحياة والجاذبية ورسالة فى سباق الخيل (٢) أودعها تجاربه فى ركض الخيل .. ورسالة فى الخط الجديد (٣) وقال عنها: هذا الخط لايشبه الخط العربى ولا الحروف اللاتينية ويقدر ان يتعلمه التلميذ فى أسبوع . وهو جميل ويكتب مفصلا من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين . ويطبع مقطعا .. وفيه تسهيل للطباعة .. فان كل حرف منه اذا قلب كان حرفا آخر من الحروف مقام كل حرف بوظيفة حرفين وتعلم ما فى ذلك من الاقتصاد . ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خطا عاما لجميع اللغات . ودروس الفلسفة (٤) التى كان القاها على تلاميذه فى

١ ـ طبعتها المقتطف بالقاهرة ١٨٩٦

٢ ـ طبعتها الهلال

٣ ـ نشرها المقتطف

٤ ـ القاهرة ١٨٩٤

جامعه الاستقامة ورسالة الفجر الصادق في الرد على الوهابية وقد طبع فيمصر قبل الدستور العثماني ورسالة الجاذبية(١) وتعليلها ورسالة لعبة الداما وتحتوى على ١٥٠٠ لعبة منها ٥٠٠ لعبة لاصحابها و ١٠٠٠ من مستنبطاته (وهذه لم تطبع) وكتاب تسهيل قواعد اللغةالعربيةورسالة الجاذبيةوتعليلها(٢) وكتاب المجمل مما أرى (٣) ٠

وليس شك ان كل هذا المحصول النثرى الضخم يعطى للزهاوى صفة الكاتب ٠ وان لم يصل فيها الى درجة الشاعر التى غلبت على حياته وفنه ٠ ولعله مما يلاحظ أنه كان فى شبابه يكتب النثر وان كل هذه المؤلفات أو اغلبها طبعت فى الفترة الاولى من حياته وقبل أن يتفرغ للشعر تفرغ نهائيا

يقول الزهاوى (٤) بنيت الادب على أنقاض عبد القادر العمرى والاخرس وكلاهما من الشعراء الوزانين المقلدين فلا حزاله فى ألفاظهما ولا ابتكار فى معانيهما ٠

ويقول الزيات أن الزهاوى كان فى شبابه ينظر فى العلوم الفلسفية الطبيعية وسبيله الى ذلك ما ترجم من المقالات والكتب ٠٠ ولم يعرف من اللغات غير الفارسية والتركية والكردية ٠٠ وانه ألف كتاب الكائنات فى الفلسفة ٠ وكتاب

١ ـ طبعت ببغداد

٢ ـ بغداد ١٩١٠

٣ ـ مصر ١٩٢٤

٤ ـ رسائل الزهاوى ـ مجلةالكاتبالمصرىديسمبر١٩٤٦

الجاذبية وتعليلها في الطبيعة وحالف به اقطاب العلم . ومن ذلك قوله : أين علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة وإنما هي دفعها لها بسبب ما تسمه من الالكترونات .

وقد عرض العقاد لهذه المسائل الفلسفية التي تناولها الزهاوى في كتبه في مقال له نشر في كتابه ساعات بين الكتب كان قد كتبه عام ١٩٢٧ وفيه يقول : (١) اني أوقر هذا الباحث الفاضل . وأعرف مستقلال فكره واستقامة منطقه وجرأته في جهاده . وغبطه بين قومه فلا أحب أن أقول فيه لغير ضرورة من ضرورات البحث مقالا لا يوائم ذلك التوقير ولا يناسب ماله عندى من القدر والرعاية .

اول كتاب قرأت للزهاوى كان كتاب الكائنات أو رسالة الكائنات لانها عجالة مختصرة من لقطع الصغيرة وكان ذلك قبل عشرين سنة (أى عام ١٩٠٧) وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة . ومباحث الدين والفلسفة . فراقنى من الرسالة سداد النظر وقرب المأخذ . ووضوح التفكير . والجرأة على العقائد الموروثة .

وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقا صحيحا يذكر القارىء باشارات ابن سينا ويزيد عليهما بالجلاء والترتيب . ثم قرأت للزهاوى شعرا ونثرا وآراء في العلم والاجتماع تدل على اضطلاع واستقلال ونزعة الى الثقة والابتكار . وكان آخر ما قرأت له رسالة المجمل مما أرى ثم شعر ينشره في الصحف المصرية من حين الى حين .

١ ـ ساعات بين الكتب ص ١٩٧ وما بعدها .

.. واذا قرأت مباحث الزهاوى برزت لك ملكته المنطقية **لا حجاب عليها ولمست فى آرائه موطن التحليل والتعليل .. ولكنك تصل فيها الخيال كثيرا والعاطفة أحيانا** .. وتلتفت الى البديهة فاذا هى محدودة فى أعماقها وأعاليها بسدود من الحس والمنطق لا تخلى لها مطالع الافق ولا مسارب الاغوار.. فهو يريد أن يعيش أبدا فى دنيا تضيئها الشمس وتغشيها **سحب النهار لا تنطبق فيها الاجفان . لا تتناجى فيها الاحلام** وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا وشمسا . وانكنها كذلك ليل وغيهب لا تجدى فيها الكهرباء .

وهكذا يعارض العقاد آراء الزهاوى فى العلم . وهو ماكان موضع النقد عند كثير ممن أرخو للزهاوى أو كتبوا عنه . يقول سليم طه التكريتى المحامى ببغداد (١) لقد بلغ من هوسه بهذه العلوم أن راح يناقض البعض منها ويرد على أصحابها..

ولكن العقاد لا يلبث أن ينصفه فيقول : الاستاذ الزهاوى صاحب ملكة علمية رياضية من طراز رفيع .. وانه يصيب فى **تفكيره ما طرق من المسائل التى يجترأ فيها بالاستقراء والتحليل ولا تفتقر الى البديهة والشعر . فمن ينشده** فلينشده عالما ينظم أو يجنح الى الفلسفة فهو قمين باصغاء اليه .. واقبال عليه فى هذا المجال .

والزهاوى الى هذا صاحب قلم وناثر ولغته قوية ممتازة .. وقد كتب فى الهلال (نوفمبر ١٧٢٦) تحت عنوان هل تدوم

١ ــ يونيه ١٩٤٩ مجلة الكاتب المصرى

نهضة الاتراك .. فقال . ان الرماد الذى تراكم فى مكان الحريق الهائل لم يخل من جمرة اذا نفخ فيها النافخ تأججت من جديد فكانت قوة كبيرة تستطيع عمل شىء جلل . وهكذا كان الامر فان الغازى مصطفى كمال نفخ فى درع الامه التركية من روحه .. تلك الروح الكبيرة .. وهو بمعزل عما كانت تكيده له الخلافة فى دارها حتى احياها وراب صدعها و ستردّ بما جنده من فلول الجيش المدحور .. وهو لا يملك يومئذ لا عزمه ما احتلته اليونان من بلادها وكان الفوز باهرا .. ويعطى هذا النموذج رتابة ذهن الزهاوى وجمال أسلوبه النثرى .

ويعزى اتجاه الزهاوى الى الفلسفة والى ادماجها فى شعره ونثره انه كان مدرسا للفلسفة الاسلامية فى الاستانة . هذا فضلا عن انه بطبيعته فيلسوف فيه حب للجدل والمناقشة .. وفى أسلوبه ذكر الاسباب والنتائج .. ولقد كانت لغته دائما اقرب الى لغة العلم . وقد أحب مجلة المقتطف لموضوعاتها العلمية . ومؤلفات فانديك فى الفلك وكتب الدكتور ورثبات عن الفسيولوجيا والتشريح . كما انه قرأ مترجما الى التركية البؤساء لفكتور هيجو. كما قرأ أناتول فرانس وشكسبير وجوته وتولستوى . وكان معجبا بشاعر الاتراك الكبير نامق كمال .

ومما يتصل بعمل الزهاوى الناثر أنه عين فى عهد الاحتلال رئيسا للجنة تعريب القوانين التركية فعرب ١٧ قانونا بين صغير وكبير .

الزهـاوى والمـرأة

من أبرز معالم حياة الزهاوى وشعره اشتراكه فى قضيـة المرأة ودعوته الى حريتها وتعليمها وسـفورها ٠٠ وهو أول شاعر عربى يعطى هذه القضية قدرا ضخما من الاهتمام ويتكلم عنها بحرارة ٠ ولم يسبق فى ذلك الا بقاسم أمين ٠ ولقد بدأ الزهاوى دعوته لتحرير المرأة منذ عام ١٩١٠ وقد تحمل فى سبيل ذلك مشقة كبرى وواجه هجـوما صاخبا من معسكر الرجعيين والمتزمتين ٠ فقد كان لدفاع (١) الزهاوى عن المرأة فى المجتمع العراقى وقعا أشد من وقع كتابات قاسم أمين فى مصر وأبعد منه أثرا ٠٠ فقد أنفـق نصف قرن أو يزيد وهو يدافع عن المرأة ويوالى حملتـه بايمان وحـرارة ٠ وقد طالب الزهاوى بتعليمها وسفورها ومساواتها بالرجل فى بيئة كانت تسام فيها المرأة كما تسام الانعام ٠ وقد نقد الحياة الزوجية فى البيئة العربية وهاجم الطرق الخسيسة التى يجرى الزواج بموجبها وآمن بأن الحجاب من أسباب تأخر المسلمين ٠٠ ومن جملة شعر الزهاوى يظهر انه عالج خمس قضـايا للمرأة ٠٠ السفور ومكافحة تعدد الزوجات ونقد طريقة الزواج والدعـوة

---

١ ـ سليم طه ٠ مجلة الكتاب يونية ١٩٤٩

الى تعليمها ومشاركتها في الحياة العامة ومساواتها بالرجل يقول :

انما المرأة والمرأ سواء في الجدارة
علموا المرأة فالمرأة عنوان الحضارة
يرفع الشعب فريقان اناث وذكور
وهل الطائر الا بجناحيه يطير
كيف يسمو الى الحضارة شعب
منه نصف عن نصفه مستور

ليس ترقي الابنساء في امة ما
لم تكن قد ترقت الامهات
اخر المسلمين عن أمم الارض
حجب تشقى به المسلمات
لايقي عفة الفتاة حجاب
بل يفيها تثقيفها والعلوم
هذبوا ارواح العذارى لتبقى
سالمات من العذارى الجسوم

اسفري فالحجاب يابنة فهد
هو داء في الاجتماع وخيم
انزعيه ومزقيه فقد انكره العصر ناهضا والحلوم
اسفري فالسفور للناس صبح زاهر والحجاب ليل بهيم
من بعدما انتظرت حقابا
ثارت فمزقت الحجابا

عـــربية عرفت أخيرا
كيف تنبـــذ ما أرابا
كان الحجاب يسومها خسفا ويرهقها عذابا
وســـيطلب التـــاريخ من ناس
لها ظلمـــوا حسابا
سألت لها حـــربة منهم
فما لقيت جـــوابا
وليس من الدين الحجـــاب وانما
رجعنـــا الى أحكامه لنتفهم
فان كان نص قائل بوجـــوبه
ولا نص فيه حســـبما أنا أعلم
نأوله حتى نوفـــق بينـــه
وبين طريق العـــلم فهو المقدم
ليس ترقى الابنـــاء فى أمـــة ما
لم تكن قد ترقت الامهـــات
أخر المســـلمين عن أمم الارض
حجـــاب تشكى به المسلمات

وهذه النماذج منتقاه من شعره على مراحل وفترات مختلفة من حياته .

ويسجل الزهاوى فى بعض رسائله أثر قضـــية المرأة فى قيوله : وعزلت عن وظيفتى فى كلية الحقوق بسبب دفاعى

عن حقوق المرأة .. وإنى لا أدرى نظمت قصيدة امرأة الجندى يوم لم يكن في بغداد شاعر يتعرف الشعر في اصلاح المجتمع .

ويقول الزهاوى في موضع آخر من رسالته مصورا أثر شعره في المرأة في ولاية نظم كانت جريدة المؤيد في مصر قد نشرت لى مقالة أدافع فيها عن حقوق المرأة فقامت حول هذه المقالة ضجة كبيرة وأخذ المتعصبون يرغون ويزبدون يتدسونني بالسب واللعن . وكان التعصب في بغداد يومئذ ذا صولة فلم يسع الوالى غير عزلى من وظيفتى ارضاءا للرأى العام .

كما أدى قيام القيامة ضد الزهاوى عليه الى لزوم داره خوفا من القتل بعد أن تعرض به دعماء الشعب .

ولقد كان لدعوة الزهاوى أثرها فقد لقيت صدى ايجابيا بالرغم من حملة خصومه عليه من أجلها .. وفتحت الباب أمام تعليم الفتاة في العراق .

فنـــون شعره

أصدر الزهاوي ديوانه عام ١٩١٤ (طبعه خيرالدين الزركلي بالقاهرة) وقد ضم شعره من عام ١٢٠٧ ـ ١٣٤١ هجريه (١٧٨٨ـ١٩٢٤) في خلال ستة وثلاثين عاما وقد كتب على صدره هذه البيت

اذا الشعر لم يهزك عند سماعه
فليس خليقا أن يقال له شعر

وقد ضم الديوان خمسة عشر بابا تعطي صورة التجديد وحسن التنسيق عند الزهاوي .

- الشهقات : في الغرام
- هواجس النفس : في مطالب فلسفية
- احاديث شجون : في القصص
- الدم والنار : في الحروب
- المشاهد : في الوصف
- الدموع الناطقة : في المراثي
- أنين المجروح : في البث والشكاه
- القارعات : في الحث على التقدم
- الشعر والشعراء : في القريض والشاعر
- الليل والنهار : في الاجتماع

- وحي الضمير : في الوطن
- المرأة : في النساء
- فاق الصباح : في الترحيب
- بقايا الشفق : في مطالب شتى
- الخطرات : متفرقة

وتعطى هذه الابواب صورة شعر الزهاوى كله بعد اصدار هذا الديوان وهو فى سن الستين . وقد استطاع ان يضرب فى جميع مجالات الشعر وفنونه وألوانه نجيدا ومصلحا اجتماعيا وسياسيا وراثيا ووطنيا .

وقد ظل الزهاوى فى شعره نابض الحرارة حتى بلغ سن السبعين .. وشارك فى محاربة الظلم والاستبداد والرغبة فى رفى الشرق ومقاومة الخرافات التى دخلت الى الاسلام ومقاومة الخرافات التى دخلت الى الاسلام ومقارعة الحجاب وسلطان رجال الدين وان كان كل ما قاله لم يكن جديدا .. الا انه سبق زمنه بمائة عام . وتقدم الشعراء جميعا فى هذا المجال .

وفى الزهاوى روح من دعوات جمال الدين الافغانى ومحمد عبده للاصلاح السياسى والدينى وفيه من الكواكبى حملته على الاستبداد .

والزهاوى يرى كل قصيدة هى القصيدة الاولى والاخيرة فلا يبالى أن يكرر فيها ما قال فى قصائد أخرى

ويقول فى مقدمة ديوانه : ربما عرف المطالع شعرى حالة بلادى السياسية ودرجتها من الرقى فى السنين التى عقبت

فيها وعرف عن حياتي ما لم يعرفه من اتى بعدي الى الحياة الطويلة .

واعلب شعر الزهاوي دعوة الى التحرير والتجديد وثورة دائمة على الجمود والتقاليد والقيود الفكرية والاجتماعية فقد كان يؤمن بان الشرق لايتم له التقدم الا اذا تحرر من هذه القيود التي علت تفكير ابنائه

وبيتاه هذين يرمزان الى مذهبه واتجاهه كله :

سئمت كل قديم عرفته في حياتي
ان كان عندك شيء من الجديد فهاته

غير اننا اذا ذهبنا نقارن شعر الزهاوي في ديوانه هذا مع ديوانه الاول الذي اصدره عام ١٩٠٧ اي قبله باكثر من خمسة عشر عاما وهو الكلم المنظوم نجد فارقا بعيدا . فقد كان ديوانه الاول مجموعة من القصائد التي قالها ايام الاستبداد ونشرها في الصحف المصرية بتوقيعات رمزية خوفا من السجن .

وكان الزهاوي راضيا عن الاتراك والسلطان في أول الامر ثم تغير رأيه عندما بدأ الاحرار الاتراك دعواتهم فأصبح موضع رقابة شديدة مما حمله الى العودة الى العراق مخفورا .

ولما راتب الغدر في القوم شيمه
وان مجال الظلم فيهـا يوسع
وان كلام الحق يثير جانبـه
وان أراجيف الوشـاية تسـمع
خشيت على نفسي فأزمعت رجعه
الى بلدي من قبـل اني أصرع

رجل راحه في بلدة نصف اهلها
على نصفه الثاني عيـــون تطلع
تراقب افعالي وكل حركـــه
الى ان يلدوه عنى التقـــادير ترفع

ويقول الزهاوي في المقارنه بين الشرق والغرب

الشرق ما زال يحبو وهو مقتمص
والغرب يركض وثبـا وهو نفاث
والغرب ابنـاؤه بالعلم قد سـعدوا
والشرق اهلوه في جهل كما كانوا

الزهاوى شاعر القومية العربية

الزهاوى «شاعر الحرية» ما فى ذلك شك ولا ريب .. لقد عاش للحرية حياته يوما يوما وساعة ساعة .. كان كل شعره وقودا لهذه الشعلة المقدسة . شعلة الحرية . فقد كان يحب الحرية حبا يفوق كل حب ويدعو اليها ويطالب بها ويفنى لها . وهو اذا حرم منها ضاق بها وظل يصرخ صرخاته القوية الجبارة .

والزهاوى شاعر القومية العربية غير مدافع .. حمل لوائها ودعا اليه منذ خمسين عاما وضج بالدعاء .

ولقد عاش الزهاوى فى عصر عبد الحميد .. وعاداه .. وأرسل اليه قصيدة صائحة بدعوة الحرية فى وجه الرجل **المستبد الذى كانت الناس تخشاه وتحمل فى سبيل صيحته** كل أذى وسجن ونفى وخراج .. ولكنه ظل مؤمنا بدعوته .. ومضى مواصلا ايمانه .. فاذا ضاقت به العراق عن أن يقول فيها كلمة الحرية أرسلها بالبريد الى مصر لتنشر فى صحفها ومضاء مستعار .

واذا قلبنا ديوانه وجدنا شعر الحرية هو أغلب شعره وأعمه . وهو أصدق شعره وأشده أثرا فى النفس

أبناء دجلة والفرات نيام
عن حقها وتسرها الاحلام

واذا الحقـــائق لم تجـد فى أمه
سندا تقـــوم مقـامها الاوهام
ان العـــراق به يعيش لشـقوة
شـعب يسـام الذل ثم يسـام
العوه حتى صـــار فيهم طابعـا
من طـــول ماصـفعتهم الايام
لو كلفـــوا مشيا على راسهم
لمشوا كان رؤوســـهم اقدام

فهو يدعو أهل العراق الامجاد فى صيحة جبـــارة قوية ان ينهضوا ولا تحتملوا الذل ولا ترضوا به .

لا يبتنى استقلاله شعب له لم يســـتعدا
شعب اذا لم تستبد به حـكومته استبدا
شـــعب يلم بشره وذا الم فلا مردا
شعب يظن الجد هزلا كله والهـزل جدا
شعب يعرض للطغام بكل يوم منه خـــدا

ولكن الشعب كان قوى الشكيمة لم يفغر للاســـتبداد ذله فثار ثورة حامية حرقت على الدخيل الاخضر واليابس وهو لا يدعو بغداد وحدها الى الحرية ولكنه يدعو الشرق كله .

عظيم على الافكار فى عصرنا الحجر
أما كل انســـانه بآرائه حـــر

وهل فلة الشعب المريد لنطلاقه
من الاسر ان الحجر فيه هو الاسر
وهل نافع تحريره من اساره
اذا لم يكن في رأسه حرر الفكر
وأى رفي في الحياة ميسر
لقوم يقول الحق ما أن لهم جهر

يرومون للافواه كما بعتفهم
وذاك لعمرى ثم ذاك هو النكر
اذا الشرق لم ينفع من القطر غله
باكباده الحرى فلا نزل القطر
لقد طال ليل الشرق بعد نهاره
أما بعد ليل الشرق محلولكا فجر
ولابد من أخذ العروبة حقها
وان حالت الاقدار أو خذل الدهر

وهو في هذا يدعو إلى القومية العربية، مؤمنا بها وكلما جاءت المناسبات ذكر العراق شعبه المكبل بالقيود ردعا الى الحرية في قوة

عيد الجلاء على ياس بمملكة
وليس فيه لجرح سائل ضميد
حيث الدخيل بسعيه من تؤلفه
وعن مواطنه للعز تشريد

أنحن يوطنا بالاستسلام مستحيل
وما هنالك يحمي الحق صنديد
ثابت مطالبه الاقوام باطلة
ومطلب العرب المهضوم مردود
وما بكل بلاد العرب من جبل
ولا بكل بلاد العرب مسعود

وهكذا ينكشف الزهاوي في كل شعره على انه ليس شاعر الحرية فحسب ولكنه شاعر القومية العربية كما يؤمن بها العرب ويعملون لها .

وهو محب للوطن . صادق الحب . يثيره هوانه و يواجه حكامه بالنقد

اهديك يوطن نشأت بأرضه
ورحت فيه يافعا وغلاما
بالذل لا أرضى وان سلمت به
روحي وأرضى بالحمام زؤاما
حتى الذين اذا الهوان اصابهم
تخذوا الاباء من الهوان عصاما
يا قومنا لا تقنعوا في احلامكم
فخذوا الاباء من الهوان عصاما
يا قومنا لا تقنع في أحلامكم
فخذوا الحقائق وابذوا الاحلاما
اني لاربأ ان أكون محبكم
في الخائنات ولا أكون حساما

ولقد يريد الظـــالمون لنفسهم
بالظلم من شر يلم ســـلاما

ولست أعتقد أن أدب القوة يمكن أن يؤدى بأقوى مما أداه الزهاوى فى قصائده الحماسية الثـــائرية التى دعا فيهـــا الى الحرية ..

فهو حامل مشعل الحقائق يدعو الى نبذ الأحلام والاوهام، وهو داع دائما وأبدا الى الاباء من الهوان والى نبذ الرقـــة والتسليم والى قبول الحمام والمـــوت دون الاوطان وحرياتها وكراماتها .

وهو فى أبان الحكم العثمانى يقذف الدولة العثمانية بأسواط لتهبه من شعره يشق بها ظلمات الليل البهيم الذى يعيش فيه العرب

ومـــا هى الا دولة مســـتعبدة
تسوس بما يقضى هواها وتعمـــل
فترفع بالاعزاز من كان جاهـــلا
وتخفض بالاذلال من كان يعقـــل
الا انما بغداد قد أصـــبحت بهم
يهددها داء من الجهل معضـــل
وقد عبثت بالشعب أطمـــاع ظالم
يحمله من جوده ما يحمـــل
فتعسا لقوم فوضـــوا امر نفسهم
الى ملك عن فعله ليس يســـأل

فيا ملكا في ظلمـــه ظل مسرفا
فلا الامن موفور ولا هو يعـــدل

ولعلها أول صيحة في الشعر العربي لمواجهة ظلم عبدالحميد يرتبط فيها الزهاوي بصاحبه الكواكبي صاحب كتاب مصارع الاستبداد :

نحن في غفله نيـــام وعنا
ثابات الزمان غير نيـــام
نحن في دولة تدار لهـــا الله
تبيح المحظور للحـــكام
وعدوها بالاصـــلاح جم ولكن
لا يجوز الاصـــلاح حد الكلام
نحن قوم قضت ارادة شـــخص
واحد ان نعيش كالانعـــام
ايها الظالم اغتصبت حقـــوقا
قد حبـــاها الانام رب الانام

وما اظن أن السلطان عبد الحميد واجه من الهجـــوم مثل ما واجهه به الزهاوي شاعر الحرية والقومية العربية

قد اسمعتك أنينهـــا الاوطان
بضعيف صوت ملؤها الاشـــجان
مدت اليك يد الشـــكاة لانهـا
قد عاث فيها الظلم والعـــدوان
أدرك بها الضعفاء واســـتعجل فقد
عز النصير وقلة الاعـــوان

ان كنت تنصرها وتحمي حوضها
عن غاصب فلقـــد أتى الايان
أدرك بنصر أمر قومـــك أنهم
ظلموا فريع الشيب والشـــبان

وهو مايزال يحمل على نظام حملات متعددة .. لايتوقف ولا يتراجع .. وانما يمضي بقلمه الثـــاري يعدد آثام الظلم وشره ويدعو الى العدل الذي هو الحريه

خفف من الظلم ايفـــاء وتهويلـ
فالظلم يقتلنا و العـــدل يحيينا
يا مالك الامر ان الناس قد ضجروا
عامل برفق رعـاياك المساكينا
لهـــوت عنا بما أوتيت من دعـة
فأبيض ليلك واســودت ليالينـــا
ليست طريقك محمـــودا عقبتها
فابدأ اذا شئت في الاحوال تحسينا

وهو من دعاة السلام . يكره الحرب وينفر منها

الحـــرب للمتهوسين
هي الطريق الاوعـــر
الحرب لولا أن تحس ضرورة لا تشـــهر
تضني الذي هو ظافـــر
وتذل من لا يظـــفر
في الحرب لا تلقى من الفئتين من لا يخسر

فاذا أهل الدستور الجديد عام ١٨٠٨ استقبله الزعاوي

فرحا به مغتبط مستقبل حياة جديدة للعرب وباب جديدا للحرية

البرق اعطى لنا بشرى بها امنت
أرواحنا بعد طول الخوف والرهب
بشرى كما تبتغي الامال صادقة
احيها الناس من قاصي ومغترب
صاحت لفرحه هذا العيد أفئدة
كانت تئن من الارزاء والندوب
صاحت سرورا وكانت قبل فرحتها
تدعو على كربها بالويل والحرب

ويمضي الزهاوي داعيا الى الحرية مؤمنا بها لاينخلع عن التركب فاذا بدا العرب يتحررون من نير الترك وتبنى الترك يكيدون للعرب ويجهلهم بالحقائق

وما فئة الاصلاح الا كبارى
يعزل بالفطر الذي ليس ينزل
لهم اثر للجور في كل بلدة
يمثل في أفعالهم ما يمثل
اذا نزلوا ارضا تفاقم خطبها
كأنهم فيها البلاء الموكل

وتبلغ الزهاوي قمة ايمانه بالحرية في قصيدته التي نحن بريئ بها من شنقهم أحمدجمال باشا السفاح الوالي التركي على سوريا من أحرار العرب

على كل عود صاحب وخليل
وفي كل بيت زنة وعويل

وفي كل عين عبرة مهـــرافة
وفي كل قلب حسرة وغليـــل
عـــلاها وما عير الفتوة سلم
« شباب تسامى للعلى وكهـــول »
كأن وجوه القـــوم فرق جذوعهم
نجوم سماء في الصبـــاح أفول
كأن الجذوع القائمات منـــابر
علت خطبـاء عودهن تقـــول
لقد ركبـــوا كور المطايا يحثهم
الى الموت من وادى الحيـاة رحيل
أجالوا بهاتيك المضـــانق نظرة
يلوح عليها اليأس حين تجـــول
وبالناس ان حفـوا بهم يخفرونهم
وقوفا وفي أيدى الوقوف نصـول
دنوا فرقوها واحدا بعد واحـــد
وقالوا وجيزا ليس فيه فضـــول
فمن سابق كيلا يقـال محـاذر
ومستعجل كيلا يقال كســـول
ولله ما كانوا يحســـون من أذى
اذ الارض تنـــأى تحتهم وتزول
واذا قربوا منهـا واذ صـعدوا بها
واذ مس هاتيك الرقاب حبـــول

وما هي الا رجفـــة تعترى الفتى
مفاجأة والرأس منه يميـــل
مشوا في سبيل الحق يحدوهم الردى
وللحق بين الصـــالحين سبيل
ستبكي على تلك الوجوه منـــازل
وتبكي ربوع للعـــلى وطلول
وأعظم بخطب فيه للمجد شـقوة
وفي جسد العليـــاء منه نحول
سرت روحهم تطوى السماء لربهـا
وما غير ضوء الفرقدين دليـــل
ولله عيدان من الليل أثمرت رجالا
عليهم هيبة وقبـــول
هوت أمهم ماذا بهم يوم صـــلبوا
على غير ذنب كي يقال دخـــول
سوى أنهم قد طالبـــوا لبلادهم
بأمر اليهم فخره ســـيؤول
ونادوا باصلاح يكون الى العـــلى
وللنجح والعمران فيه وصـــول
فما رد عنهم عنهم بالشفاعة عصبة
ولا ذنب عنهم بالســـلاح قبيل

وهكذا يصل الزهاوى الى القمة فى ايمانه بالحرية ودفاعه عن القومية العربية

وهو لم يقف عند حد مقاومته للعثمانيين ولكنه ظل يقاوم الانجليز في العراق في كل مناسبة يحس فيها بأنهم يقفون حرية الشعب أو يغتصبون حقه الشرعي

تلغي معـــاهدة وأخرى تعقد
والشعب يستغني لهـا ويهـدد
والشعب يطرى للجـــالة خنجـرا
في صـــدره عما قريب يغمـد
وكان يوم الفاصـــبين لحقهم
ليل وهذا الليـــل بحر مزبد
والشعب بالقيد الثقيـــل مكبل
حتى يكاد اذا تحـــرك يقعد
للبعض كـــوخ واطىء ولبعضهم
صرح كما شـــاء النعيم ممرد

والزهاوي بعد هذا كله يشر فاذا أخذ عليه نقاده ضعفا في بعض مراحل حياته أو موقفا هنيا فانما يجب أن نذكر انه كان يعيش في فترة من أحلك الفترات التي كان يمر بهـا الشرق حيث الاستبداد والاستعمار والبلاء كله يصب على الامة العربية من الترك والانجليز على السواء وان روح المقاومة الفعلية لم تكن قد أخذت بعد صورتها الحية القوية التي نراها اليـوم . فهو بالنسبة لجيله في دعوة الحرية والقومية العربية سباق متقدم من جيله وقد رجحت حرارة ايمانه وصـــدق كفاحه بما أخذ عليه رجحانا كبيرا

بغداد في شعر الزهاوي

أحب الزهاوي بغداد حبا قويا عميقا صادقا لم يتغير ولم يتحول وقد سجل في شعره في عهد الواسع شغفه بالعراق وحبه له ولكن حبه لم يكن تقليديا يصوغه مدحا، وانما كان حبا بصيرا يحمل معنى الايمان بالوطن . والدعوة الى تحريره وتخليصه من قيود الفكر وقيود الاجتماع وقيود السياسة .

وقد كان يكره بغداد أحيانا حين كان يحكمها المستبدون من الاتراك :

كراهيتي لبغداد في شدة وازدياد
ابدل لي قربها بالبعاد
كرهتها نفسي وملء فؤادي

وهو في هذه الفترة يسميها دار الظلم والجهالة والفساد ويقول انه في كل يوم مصيبة تتجدد ومشكل يتولد

أين ذهن قد كان يشبه برقا
سرعة في فهم الامور وخفقا
حرقته نار التوقد حرقا
انك اليوم لو تفتشي تلقي
حجرة منه في ركام الرماد

ذلك أن الزهـــاوى الانوف المعتز بشخصيته كان يود أن يختار لعمل ممتاز يليق بمكانته وشعره .. فهو فى غير مكانه ثم هو يلقى حملات الخصوم من حوله فلا يلبث أن يقول :

سـجن بغـداد فى الحقيقة قبر
موحش فيه تدفن الاحيـاء
حجرات فى جوفها ظلمـات
فهى فى الليل والنهـار سواء

وقـد ظل يحس بانه دون قـدره .. وانه لم يعط ما كان خليقا به .. فحمل على العراق فى صورة حكامها من العثمانيين

انني اليـوم فى بلادى أسير
ليت شـعرى متى يكون فكاكى

وفى ابان هذه الازمة النفسـية فكر فى الهجرة الى مصر فنظم قصيدته الخماسية

« أنت مصر ملجأ الاحرار » وفيها يقول :

شاعر بالعراق ينظم شـعرا
فيرى دون نشـر ما قال عسرا
فيهادي به على البعـد مصرا
حيث يلقى الشـعر المهذب نشرا
ان مصر ريحانة الامصـار
تبلغ النفس عند مصر منـاها
طيب الله بالسـلام ثراها
بلدة حبيب النجاح سـقاها

يجد الحر ملجأ في ذراه
أنت يا مصر ملجأ الاحرار

كان ذلك في أوائل القرن العشرين .. عندما فكر الزهاوي في الهجرة من بغداد الى القاهرة . وخرج غاضبا ولكنه لم يلبث أن عاد بعد قليل الى بغداد .

وكنت هبطت قبل سنين مصرا
فلم أهنأ وفضلت الايابا
ذكرت مواطني وذكرت أهلي
وليلى والصبا به والشبابا
وقلت لقد نأت بغداد عني
فليت الدهر يمنحني اقترابا
ولو أني رجعت الى بلادي
لقبلت المنازل والترابا

وهكذا يبدو حبه لبغداد قويا دافقا حتى انه لا يلبث أن يقول :

انى اذا احتاج العراق فبالحياة له أجود
ان لم اذد أنا عن حقوق للعراق فمن يزود

ثم يعتدل رأيه في العراق بعد أن تتكشف غمة الحكم العثماني ويبدأ الحكم الوطني بعد ان يلي الملك فيصل الحكم في العراق :

قد ذقت صابا في حياتي بالعراق ، وذقت شهدا
ولقيت فيما قد لقيت بموطني بخسا وسعدا
ورأيت بعد المد جزرا ثم بعد الجزر مدا

وقد شارك الزهاوى فى الحياة السياسية فى العراق مشاركة فعلية حتى ليشمل ديوانه جانبا كبيرا من صور هذه الحياة .. صور فترة الظلام التى سادت العراق أيام عبدالحميد ثم كيف تكشفت السحب عند بدأ عهد الدستور فى الدولة العثمانية ثم كيف بدأت العراق تقاوم الاحتلال البريطانى فى العراق ويقيم الحكم الوطنى فيه

ونظم الزهاوى شعرا فى استقبال فيصل وفى استقلال العراق وفى الحياة النيابية وشارك فى استقبال غازى وبارك حكمه .

وقد سجل الزهاوى فى مذكراته التى عرفت باسم رسائل الزهاوى حالة العراق عند مولده عام ١٨٦٣ فقال : كان عدد سكان بغداد فى العهد الذى ولدت فيه مائتى ألف نسمة تقريبا وحالتها الاجتماعية يومئذ منحطة ولا غاية لاكثر رجالها الا التزلف الى الحكام الاتراك وولائهم ولا منافسة الا فى الرتب والالقاب .

وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٣٢ (وقت تحرير مذكراته) ٣٥٠ ألفا وكانت العراق فى رجاء غير ان الجهل كان يسود أكثر أهله ولم تكن فيه يومئذ هذه المدارس المدنية المنتشرة فى أنحائها الا الكتاتيب والمدارس القديمة الدينية وكان التعصب شديدا .

وفى بعض شعر الزهاوى يذكر العراق فيقول :

أنا والحق في العراق مضـــاعان
وما فيه غيرنا بضـــاع
واذا جرت البقاع شـــقاه
لقيم فتلك شر البقـــاع

وقد صور الزهاوي بغداد في أكثر صورة جميلة رائعـــه مسجلا انها هي التي أوحت اليه الشعر :

هناك في بغداد على ضفة دجلة سماء صافية زرقاء تلمع في ليلها النجوم فرادى وازواجا واشـــتاتا وركاما وأرض خضراء اديمها هي منبت جسدي وعقلي وأصحاب يوالون وأعداء يناوئون وجهاد مستمر وآمال بيض وياس أسود .. وفـــساد في النظام وعادات سيئة تضر بالمجتمع ونفس لي حرة لا تقدم على الضيم كل ذلك قد انطقني شعرا هو شعور كان يجيش في نفسي قبل أن أنطق به .

بين الزهاوي وخصومه

عاش الزهاوي حياته في حرب متصلة بينه وبين خصومه هو بعناده وجرأته واندفاعه في اعلان الرأي الجريء وخوض معارك الحرية ومهاجمة العادات المألوفة يثير في كل يوم خصومة مع الحكام والولاة ورجال الدين والمحافظين . ولم يكن الزهاوي يصبر على النقد أو يبتسم له أو يسخر منه . وانما كان يواجهه في غيظ وكراهية وألم . يبلغ به أحيانا حد البكاء .. وقد يدفعه الى التفكير في الهجرة والخروج من أرض الوطن .

وقد احتال لاعلان آرائه بكل وسيلة .. كان ينشر آرائه وقصائده بتوقيع رمزي .. وكان ينشرها في غير صحف العراق .. ولكنه لم يكن يتنازل عن تصميمه وهو لم يعش يوما دون معارك أو خصومات مندفعا في حماسة وعاطفة وعناد .. وقد سجل انه كابد في حياته مزيدا من الشقاء والاضطهاد . وأنه رأى عادات سيئة وفساد .. وأن نفسه الحرة دفعته الى أن يقاوم هذا كله ويعمل على ازالته . وقد شغل الرأي العام بآرائه الجديدة الجريئة فخلق خصومات ناقده كانت توالبه بالتقريع والهجاء .

وقد صور الاستاذ ناصر الحاني في محاضراته عن الزهاوي هذا الجانب من حياته فقال : وأغرب ما في أمره ان اندفاعه المشهور وحماسته التي جاز خبرها حدود الرافدين . وقد اعتراها صمت طويل وصحب هذا صخب عليه . وتقول متضارب في وطنيته وقوميته . وقد عزز هذا التقول ما اسنده السلطة المحتلة من مناصب للزهاوي قد لا تكون أعلى منه مقاما ولكن الظروف التي عهدتها اليه نابية جائرة فصارت وبالا عليه . وظل في حيرة من أمره وصار الناس ينظرون اليه بعين الشك والارتياب ولا يطمئنون اليه فكثر أعداؤه ومقاوموه وكثر الذين يريدون أن يوقعوا به .

ولم يكن ليحتمل ما وقع له فظل مضطربا يخشى الناس ويتوهم أنهم سيوقعون به لا محالة .. وكأنه أدرك فشله بالمشاركة بأقسى محنة عرفتها (١) بلاده . فحاول أن يبدأ بالتقاليد التي رزح فيها الناس والمشكلات الاجتماعية التي تحفهم فحمل على العقائد البالية . ودعا الى التحرر الفكري .. ومساواة المرأة بالرجل . ولم يكفر هذا سيئته عند الناس . فقد حاول أكثر من مرة أن يهجر العراق بعد أن توالى عليه النقد والتقريع .. فقرر السفر الى سوريه بعد سنتين قضاها على الثورة ولكنه لم يسافر الى سوريا وسافر الى مصر .

(١) ثورة العراق عام ١٩٢٠

وهو فيما يتصل هذا قال قصيدته :

سأرحل عن بغداد رحـــله عائف
فقد طال في دار الهـوان قعـودي
وافرح من آلي ومـــالي وموطني
وما كان لي من طارق وتليـــد
ولم في عمـــري كبغداد منزلا
به العلم لا يجزى بغير جحـــود
رأيت بها بؤسا وشـــاهدت نعمة
فلم أسترح من شـــامت وحسود

يقول الاستاذ ناصر : ولم يستطع الزهاوى أن يطيل مكثه خارج العراق فكانت غيبته استجماما فصدقت الناس عنه قليلا واستطاع بعد عودته أن يخوض غمار الاحداث العـــامة وأن يوقف نفسه لها فيثيرها ضجة على الحكومة .

والواقع أن الزهاوى كانت له مع اهل وطنه مواقف لعلهـا هى التى دفعتهم الى الحمـــله عليه . ولعلها هى التى جعلته يسرف فى الدعوة الى التجديد والحرية وتحرير المرأة .

ومن أهم هذه المواقف : مديح الزهاوى للسلطان عبدالحميد أولا ثم حملته عليه .. وفى ديوانه الكلم المنظوم قصيدة يقول فيها :

لسلطاننا عبد الحميد ســـياسة
طريقتها فى المعضـــلات هى المثلى
ماذا على الســـلطان لو أجرى
الذى يشتاقه الاحرار من اصـــلاح

سللت لنصر الدين سيف وعزمة
فللت به ما لم يكن فيه سـهلا
وجهزت جيشا للجهـاد عرمرما
قهرت به ذاك العـدو الذى ولى

ومن هذه المواقف قصيدته فى مدح الانجليز والتى جعل عنوانها ولاء الانجليز (١) وفيها يقول :

وجدت الانجليز أولى احتشـام
أباه الضيم حفاظ الزمـام
أحب الانجـليز واصطفيهم
لمرضى الاخـلاء من الانام

ولقد كان لهذه القصيدة أثر مظلم شديد الظلمة على حيـاة الزهاوى فقد لحقه عارها طوال حياته وكانت كما قال الاستاذ ناصر من أسباب حملة خصومه عليه وهجرته .

وقد كتب الزهاوى فى رسائله (٢) معلقا على هذا الحادث الخطير فقال : لما ذهبت الى الاستانة واختلطت بالترك الفتيان أيدت بالتجاهر ونشر القصائد بأسماء مستعارة فى أمهات الصحف المصريه . وقد ذهبنا فى حـرب الانجليز والبـوير جماعة من الترك الاحرار نتمنى للانجليز الفوز فى محاربتهم وذلك بقرار من الحزب المناوىء لعبد الحميد .. نريدون بذلك أن يعضدهم الانجليز فى طلب الدستور . وكنت نظمت لهذه

١ ـ ديوان السليم المنظوم

٢ ـ الكاتب المصرى ـ ديسمبر ١٩٤٦

الغاية قصيدة امدح فيها الإنجليز وأشدو بقوة اسطولهم ·وقد نشرت في أول ديواني (الكلم المنظوم) والى الان يعيبني ناقدي على هذه القصيدة · ولكن هل كنت يومئذ أعرف أنه ستحدث حرب عالمية ويحتل العراق · هذا ما لم يخطر في بال أحد ·

وهو دفاع ضعيف ولاشك ·· ولعل الزهاوي قد حاول بعد ذلك ان يدفع بشعره في مجال الكفاح الوطني ليغطي على هذه القصيدة وهو أن كان قد رثى بعد ذلك أحرار سيوريا الذين شنقهم احمد جمال السفاح فانه صور الثورة بصورة الوبال على البلاد ·

وقد كان مما أخذ عليه انه قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها ببيت واحد من الشعر ، وقد كان مما أخذ عليه أنه قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها ببيت من الشعر

ومما يسجله الزهاوي في عدا الصدد ويأخذه عليه خصومه انه عندما وقعت الحرب العالمية واحتلت الجنود البريطانية بغداد ·· ارادت أن تأخذني الى الهند أسيرا · ولكني أبرزت ورقة فيها صراحة بأني مكاتب جريدة المقطم فأفرجوا عني ·· وكانت هذه الجريدة موالية للانجليز

وقد صور الزهاوي موقف خصومه منه في بعض شعره :

قالوا دخيل في القريض فما أجاد ولا أجدا
قالوا صغير لا يعد من الفحول ولن يعدا
قالوا الى الاحسان منه غيره في الشعر أهدى
وله جراءه فيلسوف يوسع الاديان مجدا

ويصور خصوماته دائما بأنها في سبيل الفكر

وما آن لي الى الجهـــال ذنب
فيغريهم بنفسي ان يكيـــدوا
سوى أني مخـــالفهم وانى
لكل خرافة منهم جحـــود

وقد توعده قوم بالقتل لجراة رايه ولكنه لا يبالي بهم :

توعدني بالقتل قـــوم وانما
لكل امرىء في الموت يوم وميقات

برئت من العلياء ان كان لي بما توعد في القوم اللئام مبالاة

وربما أراد الزهاوى أن يكفر عن هذه الاخطاء فقال فيمقدمة ديوانه الذى أصدره عام ١٩٢٤ « ما حمدت الا من ظننت فيه خيرا للبلاد وربما خاب ظني في بعضهم فكففت »

قد مدحت الذين لم يســـتحقوا مدائحي
أحســـبوها على ضرورتها من قبائحي

ومن المآخذ التي سجلها هو على نفسه مدافعا عنها قوله

قد يعلق بذهن الشاعر شطر من بيت سمعه لمتقدم فياتي بعد سنين في تضاعيف قصيدة له لاقتضاء المقام لذلك . وهو ناس أنه مقول . فتقوم عليه القيامة ويرمى بالسرقة ..

كما يعتذر عن بعض شعره الذى وصف بأنه نظم ركيك أو سطحي المعاني :

لا أغالي قربما قلت شـــعرا
لم أكن في قرضي له بالمجيـــد
منه بكر بطرى ومنه عـــوان
لم يحز رتبة الكعـــاب المزيد

قاتله لاهما في صـــــبى
من هموم الهوى وبرح الصـــدود
يوم للغيد كنت أصـــبوا ومن
ذا ليس يصبوا الى الحسان القيد
ثم أرهفته فكان ســـلاحي
ثم غنيته فكان نشـــيدي
ثم صـــيرته مجنا يقيني
من فروق شر عبد الحميـــد

الزهاوى والموت

للموت في شعر الزهاوى مكان كبير .. فهو الرجل المجدد الذى حاول أن يقتحم فى الحياة بقوة .. كان يعـــود فيذكر الموت ويخشاه ويقف عنده وقفات تختلف مع السن .

وهو يصور فكرة الموت وما بعد الموت من أهوال :

للمرأ فى الارض الفضاء مساكن
انى مضى والقبر آخر مسكن
والموت فوق جنادل وصفائح
كالنوم حم على فراش لين
قالوا وراء الموت أهوال ولم
أحفل بما قالوا ولم أتيقن
ولعل هذا الموت مبدأ رحلة
للروح خالدة وراء الازمن
وكأننا صور الخيال لبرهة
تبدو وتخفى فى شعاع الاعين
قد سرت قبلى للورى متعجلا
ولعلنى بك لاحق ولعلنى
لا تسألونى عن مصير من انطوا
أنا بالعواقب لست بالمتكهن

ويقول في موضع آخر من القصيدة :

تبني الحياة لها الصروح من المنى
والموت يهدم كل ما هي تبتني
في الكون هذا كل شيء ممكن
الا البقاء فذاك ليس بممكن
لابد من موت لمن هو عائش
فاشجع اذا قابلته أو فاجبن
ان الموت لرابض متحين
فمساذا مراد الرابض المتحين

وفي قصيدة احساساتي يصور الموت في صورة أخرى. وقد نظمها قبل موته بشهور قلائل وكان قد نزل من السيارة عند باب السوق في بغداد يريد مقابلة أحد الكتبيين فسقط مغمى عليه فحملوه الى داره فقال .. قلت لعل يومي قد اقترب وهي آخر قصيدة قالها قبيل موته :

قد أتى يا منيتي أن تعودي
بي الى حيث كنت قبل وجودي
ليس من هذا الموت لا نفس بد
فهو للناس من تراث الجدود
يا أماني فارقيني ويا نفس وداعا
ويا حساسه جسودي
لا تخافي على الموت سهل
لا كما ينعتونه بشديد
لاتخافي ليس على الارض ولا في سمائها بجديد

وليل الصبا يعبر رخاء
فوق ملجودتي فينعش عودي
لا أنيس ولا نسيم ولا نور
يزيل الظلام عن ملحودي
يوم لا نبصر الربيع
ولا تصغى لانغام البلبل الغريد
يوم لا تطلع النجوم علينا
باسمات من السماء كخود
يوم لا يسفر الصباح لنا
من جانب السماء قائما كعمود
يوم أيدي الردى تجردني
من كل طارف وتليد
سيقولون شاعر غاب في اللحد
وكم غاب مثله في اللحود
سبقتني الى المقابر موتى
أنا في الراحلين غير وحيد
بعد نومي على فراش وثير
عن قريب أنام في أخدود
لا أنيس ولا نسيم ولا نور
يزيل الظلام من ملحودي
غير أني ما أن سئمت حياتي
وهبوطي وهادها وصعودي

ما بلغتـــا من اللبـــانات يا نفسى
سوى التـــذكر بعد جهد جهيد
يممى يا نفسى الســـماء فانى
لا أرى فى الثرى طريق الخـــلود
ان تلك الســـماء كالارض هذى
حومة تدمى للكفـــاح الشديد
لا يخيفنك اللقـــاء بحرب
هى بالنـــار تلتظى والحديد
انت حاربت للتحرر أعـــواما
طوالا فحـــاربى من جديد
أنت فى الارض مـــا نطاطات حتى
تخضعى فى الســـماء أو تستفيدى
انما أنت للتمـــرد لا للخسف
فالرصـــف فى ثقال القيـــود

وفى هذه القصيدة يبدو الزهاوى وهو على أبواب الموت فى عناده وشماسه وكبريائه .. مدلا بشعره وجهاده فى ســـبيل التحرير . كما يرى أنه بالرغم من بوغ السبعين لم يزل يحب الحياة ويرى أنه لم يقض منها الا اللبانات اليسيرة بعد الجهد الجهيد . وانه سيحرم من أنوارها وضحاها وجمالها فى حسرة بالغة ..

ويتصل بالموت شعره فى الرثاء ويمتاز بروح حية وأسلوب طليق وفلسفة عميقة يتصل دائما بالموت والحياة

يرثي المتنبي في ذكرى الأنفية فيقول (١) وكأنه يذكر نفسه :

ما أنت يا أحمـــد في دولة الادب
الا الزعيم والا شبـــه العرب
وما تنبأت في دين كما زعمـــوا
بل في الفصاحة سباقا وفي الادب
فكان يوحى اليك الشعر عن شحط
وكنت في قـــادة الاداب أولهم
وكان يوحى اليك الشعر عن كثب
وكنت أولهم في الجحفـــل اللجب
وكنت في الشعر مثل الماء منطلقا
وكنت في الحرب مثل النار في الحطب
كم حكمة لك سارت في الورى مثلا
قد قلتها بلسان الشـــاعر الذرب
كم دولة للقريض الناهض انقلبت
لـكن عرشـك فيهـا غير منقلب

وقال في تأبين الشاعر عبد المحسن الكاظمي(٢) وهو من جيله وواحد من أربعة شعراء العراق الجواهري والكاظمي والرصافي والزهاوي :

صدق النعي ومـات عبـد المحسن
يا شـــعر أنبـه ويا نفس أحزني

١ـ الرسالة ٧ يناير ١٩٣٥
٢ ـ الرسالة ١٠ يونيه ١٩٣٥

يا شـــعر ومحسن قد كنتما
عمرا رفيقي غـــربة وتوطن
قد عشـتما في كل منزلة معـــا
كالفـــوق بين اللامعين وأحسن
أو زهرتين ولا أراني داريـا
أشـــغفت بالنسرين أم بالنوشن
حتى احتوته يد المنـــايا بغتة
بمخالب ممقـــوفة كالمحجن
لن الزعامة في القريض ومن لهـا
بعد الحفي الشـــاعر المتفنن
ملأت قصائده القـــلوب حماسة
من بعد ماشـــغلت جميع الالسن
شعر يكاد يســـيل منه لفظة
مثل النـــدى من رقة فيهزني

عقيـــدة الزهاوى

كانت عقيدة الزهاوى هى بؤرة نقد خصومه .. والدعوى المنطلقة فى كل مكان .. كان الناس يقـــولون ولا زالوا : ان الزهاوى كافر وملحد وزنديق ولا يؤمن بالله ولا باليوم الاخر . ولا بالبعث والنشور . وهو اتهام يوجه الى كل شاعر مجدد . وكل مفكر جرىء وكل مصلح سبق زمنه .. او أديب أراد أن يهز حياة قومه الجامدة .. وما من كاتب أو مفكر أو شاعر لمع اسمه وتالف الا وكان له من خصومه مثل هذا الاتهام .

فهل الزهاوى حقا ملحد . وما هى عقيدته .. لندع شعره فى تختلف مراحل حياته يكشف لنا عن الحقيقة .

فى ديوانه الكلم المنظوم الذى أصدره عام ١٩٠٧ وهو أول دواوينه يقص القصـــة على لسان امرأة تحدثت معه فى هذا الشأن قالت :

أأنت الفتى بالزعم يذكر انفســـا
اذا ما رديناـــــا لم نعد مره أخرى
فينكر بعد الموت عود حيـــاتنا
وتجحد فى أقوالك الحشر والنشرا
فلو لم تكن دار يجـازى بها الفتى
تساوى اذا من يفعل الخير والشرا

ويرد هو في نفس القصيدة فيقول :

ندمت على ما كنت فرطت قبل ذا
يسوء اعتقاد لى الى الكفر جرا
لقد قلت قولا باطلا بجهالة
حشانك اللهم يا خالقى غفرا
لقد تبت عما كنت معتقدا له
فان لم تتب ربى على فواحسرا
شهدت بأن الله ربى واحد
تنزه عن عيب يشين له قدرا
اذا غنى الشيطان عن منهج الهدى
وكان يميني فانحرفت الى اليسرا

وفي هذا اعتراف صريح من الزعاوى بانه انحرف في رايه ثم عاد فاعتدل مرة أخرى . وفي عباراته معنى التوبة والرجوع الى الحق الذى اعتقده بعد أن عرفه . وما على الزعاوى من بأس في هذا ولا ضير :

ويقول في قصيدة : احساساتى

لست أدرى اللفظ سنمضى
بعد ما نموت أم للخلود
انني في شك وان ملأوا سمعى
بوعد يروونه ووعيد
لا تثق بالجمهور يا عقل يوما
ان رأى الجمهور غير سديد

تاكل الارض كل حي فلا تبـــقي
على والـد ولا مولـــود
امم كلهـــا بيد فتاتي
امم اخرى بعـــدها للبيود
سوف يقفو ركب الى الموت ركبـا
ثم لا أشـــدو خلفـه بنشيدي

وفي هذه القصيدة يعود الزهاوي الى الشك في الحياة بعد الموت ولكنه لا يلبث أن يقول في نهايتها :

كلنا مؤمن يســـبح للرحمن
في ظل عرشه الممـــدود
انني ما ســـجدت يومـا لغير الله
فالله وحده معبـــودي

وفي هذه الصراحة قوة وصفاء ووضوح :

وهو في أوضاع مختلفة من شعره يدافع عن نفسه هـــذا الاتهام (١)

ما حيـــاة قديمهـا غير باد
لك الا تطور في الجمـــاد
ولقد يهلك الذي يتـــوقى
وقد لا يعيش أهـــل الجهاد
أي ذنب لي أن تبـــاعدت
الشـــقة بين اعتقادهم واعتقادي

١ـ قصيدة تطور في الجماد . الرسالة ٢٥ فبراير ١٩٣٣

كلما خالف الجماعة في الرأ
ي جرى رموه بالالحاد

وفي قصيدته الضخمة : ثورة في الجحيم .. يعاود تصوير ايمانه فيقول :

كان ايماني في شبابي جم ... لم يهزه ولا يقصر
غير ان الشكوك هبت تلاحيني فلم يستقر بي الشعور
ثم عاد الايمان يقوى الى أن سلمه الشيطان الرجيم الغرور
ثم آمنت ثم الحدت حتى قيل هذا مذنب مغرور

ثم دافعت عنه بعد يقيني مثل ما يفعل الكمي الجسور
وتعمقت في العقائد قبل هذا علامة غرير

ثم اني في الوقت هذا لخوفي
لست أدري هذا اعتقادي الاخير

وتعطي هذه الابيات صورة الزهاوي وهو بين الايمان والالحاد باحثا حتى وصل الى الاقتناع عن طريق العلم والبحث لا بالوراثة والتقليد وهو يقول في شأن عقيدة المقلد وعقيدة البصير الباحث :

أمن اكتفى بخرافه فهو مؤمن
ومن امترى فيها من الكفار

ولدى النهـاية جاهل فى جنـة
فيها النعيم وعالم فى النـــار

ولم يدع الزهاوى خصومه ينطلقون فى اتهـامهم له فصرخ فيهم صرخة عارمة :

يا قـــوم مهلا · مســـلم أنا مثلكم
اللـه ثم اللـه فى تكفيرى

حكمة الزعاوى

قال نقاد الزعاوى أنه اشبه بالمعرى من ناحية واشبه بالمتنبى من ناحية أخرى وأرادوا بذلك انه يماثل المعرى فى فصائده الجريئة وآرائه فى الحياة والموت وما بعد الموت وحربه على خرافات الدين واوهام العامة .. وانه اشبه بالمتنبى فى اعتداده وكبريائه وفلسفته واعتزازه بشعره وكذلك حكمته المنثورة فى طوايا قصائده .

والحق أن الزعاوى كان فيلسوفا وانه كان يتعرض لقضايا الحياة فى قوة وجرأة حتى ليمكن ان يطلق على اديه دائما أدب القوة .

يقول :

ليس الحياة سوى نزاع دائم
يا للضعيف به من الجبار
يا شيب لستم للوعى فتاخروا
ويدار يا شبان ثم بدار
انضوا القديم وبالجديد توشحوا
حتى م تختالون فى الاطمار
وتحرروا من نير كل خرافة
خرقاء تلقى الزيغ فى الافكار

وتحرروا من قيد كل عقيـــدة
سوداء ما فيها هدى للســـــارى

ويصور الحياة والموت في صورة رائعة :

لقـــد راعنى رزايا توالت
والـــرزايا اذا توالت تروع
ورايت الايام تأكل من أعمـــارنا
فى الحيـــاة وهى تجوع
وكان الارض التى هى وارت
كل هذى القبـــور قبر وسيع
وكان الســـماء قبة دير
وكان النجوم فيها شـــموع
كلما شاهدت المقـــابر حولى
اخذتنى مهـــابة وخشوع
ليس للقادمين منا بقـــاء
ليس للذاهبين منا رجـــوع

ومع هلال محرم يشدو داعيا أبناء العروبة الى المجد والحرية والكرامة :

ومن لى بعام لا يشـــابه غيره
أرى فيه اطفار البغاة تقـــلم

وأبخل أرض بالرجـــولة يقمه
يضـــم الفضى فيهـــا ولا يتيرم

أدير عيوني في الوجـــوه فلا أرى
تتوق النذل مقـــــروءا ولا أتوسم
ليحزنني أن الفضـــــائل آثرت
خمولا وان الزهـــــر لا يتبسم
بني وطني لا تسكتوا عن حقوقكم
أليس لكم منكـــم فم يتكلم
لكم ثروة في الارض ألقى بها لكم
وأرباحها للغـــرب نهب مقسم
لا فخر الا للذي هو ماجـــــد
ولا مجـــــد الا للذي يتقدم
وما الحـــر الا من اذا ضيم لم يقن
وان قال حقـــا فهو لا يتلعثم
وما بال أبناء العروبة أصـــبحت
على الذل أشـــتاتا تشب وتهرم
وما بال ابنـــــاء العروبة سلمت
وقد كان عهـــدي انهـا لا تسلم
لآلام قومي الصـــــيد نفسي تألمت
لك الويل يانفسي التي تتـــــألم

وهو مذهب للحياة مهما غلت به السن يدعـــو الناس الى المتاع (١) بها :

---

١ ـ قصيدة خطرات . الرسالة : أكتوبر ١٩٣٥

يا نفسي يانخدعي بالزاهد المتقطع
دنياك هذي تحتوي على النعيم أجمع
تنعمي بخيرها قبل دنو المصرع
وبالحياة ما صفت تنعمي تمتعي
لكل باب تحسبين الخير خلفه اقرعي
وانتهزي الفرصة قبل فوتها واسرعي
بالبسمات تبلغين السؤال لا بالادمع

وهو اشتراكي يدعو الى المساواة

لايعرف المؤلم في الحياة الا المؤلم
ألف يعيش بائسا وواحد منهم

ثم يعاود هذا المعنى بصورة أقوى وأوضح :

ان من كدوا يزرعون البقاعا
اشبعوا غيرهم وباتوا جياعا
ربح المالكون الارض عضبا
ومضى كد الزارعين ضياعا
يقفر الدهر ألف بيت ليغنى
واحدا من أفراده جماعا
لا ترى بين أو ليهم ثريا
كانزا للاموال أو متاعا
ومن العدل يكون نتاج الارض
بين المنتشرين متتاعا

أن بين الحق المحصحص والباطل
منذ الدهـــر القديم نزاعا

ولقد ذكر الزهاوى كثيرا انه تتلمذ لابى العلاء وهو يقول مخاطبا اياه فى قصيدة له من ديوان الاوشال :

وأني أكبر شيء فيـــك يعجبني
سخرية من تقاليد وعصـــيان
أنكروا فيك الحـــادا وزندقة
وعل ما أنكروه فيك بهتـــان
اننى تتلمذت فى بيتى عليك وان
ابلت عظامك أزمـان وأزمـان
أصابنى فى زمانى ما أصـابك من
حيف فما رد هـذا الحيف انسان

وهكذا يصل الزهاوى الى أن يربط نفسه بالمعرى فى تشابه حياتهما وما لقياه من الجماهير

وقد عارض الزهاوى قصيدة ابن سينا عن الروح فقال :

طارت بعز للسـماء الا رفع
ورقاد كانت فيك ذات تخضـع
قد كان مسكنها بجسمك ضـيقا
واليوم تسبح فى مكان أوسـع
الفه أرسلها اليك وبعده أن
مكثت قليـلا فيك قال لها ارجعى

وان كان لم يتم عدد القصيدة وقال : حال دون اتمامها مانع .

خدعوها بقولهم حسناء
شعرها الليل والجبين ذكاء
غرها ذلك الثناء فلانت
والغواني يغرهن الثناء

ومن شعره الحكمي قوله :

ما أكبر الاخلاق في نفسي امرىء
ان خاشنته الناس لم يخشوشن

وقوله :

ما قلت شيئا يغمى
الا وعقلي متهمي
أنا ابن عقلي وحده
تثبتي عني كلمي
به اهتديت في شبابي
مثلما في هرمي
ربما كانت أمور
أنا عنهن عمي

دموع الزهـــاوى

لدموع الزهاوى قصة طريفة ·· فقد عرف بأنه صـاحب دمعة ·· وكان هذا مصدرا من مصادر متاعبه · ولطالما ردد فى شعره قصة الدمع ·· غير انه عاد فى آخر أيامه · فدعا الدمع الى أن يقر فى العيون ·· ويرجع على الاعقاب :

يقول فى ديوان الكلم المنظوم :

الا ياد مع انك ترجمـــانى
فبين للأحبة ما أعـــانى
اليهم فى فى فؤادى بعض شـــكو
ى لسانك فيك أفصح من لســانى

ويقول :

ابك فان عبرة الباكين سلوى لهم
اليس ثغر الدم فى وجه الحزين يبسم

ويقول الاستاذ ناصر الحانى فى محاضراته عن الزهاوى :

« عرف ان دموعه طبيعة ، وانه يبكى اذا ضجر وثار ·ويبكى اذا ابتهج وسر · وعرف عنه بعض مناوئيه ومغيظيه هـذا ·· فراحوا يثيرونه ويشيعون عنه ما يبعث الفرح اليـه حينا ·· وما يغيظه ويبعث الثورة فى نفسه أحيـانا · وظل يعيش فى

عالم خاص به ـ لاسيما فى شيخوخته ـ ويرى أن قومه لم ينصفوه .. »

وهو فى قصيدة : دمعتى يكاد يصور هذه المعانى كلها :

أنت اما أن تخففين مصـــابى
دمعتى فارجعى على الاعقـــاب
أنت لا تدرئين عنـــى دائى
أنت لا تصلحين منه خـــرابى
أنت لا تجدينى فى شـــقائى
أنت لا تنقذيننى من عـــذابى
أنت لا تدفعين وطأة شـــيبى
أنت لا ترجعين عهد شـــبابى
أنت لا تقـــدرين أن تهبينى
راحة أو تسكنى أعصـــابى
انما أنت قطرة ســـتبلين
اذا سلت بقعة من ثيـــابى
أو تضيعين بين لحيتى البيضـــاء
أو تنبضين فـــوق التراب
ارجعى فالحياة ليست تســـاوى
ان تخرى من حالق كالشـــهاب
لا تخـــرى وان قضى ان تخـــرى
سبب قاهر من الاســـباب

ان نفسي لا ترضى أن تهـــونى
كشجونى وان ملأن أهـــابى
يا ابنـــة الهم ان غرفتك القلب
فلا تخرجي الى الابـــواب
أنا لم أسأل الغيـــون بكاه
لتكونى على السؤال جـــوابى
واذا ما هبطت بالرغـــم منى
طال يادمعتى عليك عتهـــابى
أنا ان بكيت أبكى بشـــعرى
ولقد أهديه الى الاحقـــاب
كل بيت منه اذا عصـــروه
دمعـــة ترة على الاداب
بين شعرى وما يجيش بصـــدرى
من شعور وشـــائج الانســـاب
أنا عنه محـــدث وهو عنى
وكلانا فى القـــول غير محاب

ويقول فى رسائله ان آلامى المعنوية أكبر من آلامى المادية. فانى كلما رأيت تقدم الشعب بطيئا استولى على اليأس . وكلما انخدع بالباطل تمزق قلبى من الاسى .. وكلما خضع للظلم شرقت بدمعى .

الشعر المرسل

دعا الزهاوى الى الشعر المرسل وحاوله على أساس انه جزء من دعوته الى حرية التعبير والقصيد . وقد نشر في هلال يونيه ١٩٢٧ قصيدة أطلق عليها اسم « بعد ألف عام » وقال انها قصيدة من الشعر المرسل الذى استحدثته فى الشعر العربى مطلقا اياه من قيد القوافى . ذلك القيد الثقيل الذى تبرم به الشاعر وحببته الالفة الى السمع وما أرى لالتزامه من ضرر غير انه من تراث الماضى الذى بقى دهرا يشل الشعر فى مجموعه .. فلا يمنحه حرية لايراد القصص وبث الاراء والوصف كما ينبغى . ولا يدله فى الموسيقى التى تجعل الشعر الا وهى الوزن .. وحسبك دليلا على أن البيت الواحد يتمثل به الكاتب فيلذه القارىء عارفا أنه شعر من غير أن يسأل عن موافقته لرديفه فى القافية ..

ما أغنى أرجل غوانى الشعر عن خلاخيل القافية .. وأغنى السمع عن سماع وسوستها التى تشوش عليه موسيقى الوزن ومن نكد الشعر العربى أن قيد القافية فيه أثقل منه فى الشعر العربى .. بطىء التطور بحسب الحاجات العصرية التى لا يشبعها ذلك القديم الضيق وانى لا أريد اليوم رفع القافية من كل أقسام الشعر فذلك عسير على الاذواق التى ألفتها منذ

عصور طويلة وأحقاب بعيدة .. ولكن أى يأس فى أن يوجد نوع من الشعر المرسل كما يوجد المقيد . وان يكون هذا النوع خاصا بالقصص والوصف والجدل والحكم حيث ينبغى أن يسير على صوت موسيقى الوزن حرا طليقا فى مجال واسع لا يرسف فى قيوده مثقلا .

وقد نشرت لى المؤيد فى مصر قبل أكثر من عشرين سنة قصيدة بعنوان الشعر المرسل ونشرت لى جريدة فى العراق قصيدة أخرى قبل سنتين تقريبا فقامت حول هذه قيامة المحافظين على القديم . وكان لى يومئذ أنصار كما كان لى خاذلون . وقد رددت على نقد الناقدين يومئذ بسلسلة مقالات أثبت فيها انهم كانوا على باطل ..

والواقع أن الزهاوى حاول ان يكسب أنصارا للشعر المرسل ولكنه هو شخصيا رجع عنه بعد ذلك الى النظم والقافية بعد أن تبين انه لا يرضى الا القليل .

ولعل هذا النموذج الذى نورده من قصيدة «بعد ألف عام» تبين مدى نجاح التجربة .

حكومتهم شبه اشتراكية فما تنعم بأفراد وتشقي جماهير
يعيشون أحرارا فليس مسيطرا عليهم سوى العقل
أحاطوا بأسرار الطبيعة خبرة
فلم يبق عنهم من نواميسها خافى
وقد عرفوا عفو الغريزة كل ما له نحن كنا بالروية نعرف

وإذا ما أرادوا السير والجو واسع
وأما أرادوا المكث فالارض ميضاء
يرى بعضهم بعضا ويسمع صوته
وبينهما الارض الفيحية تفصل
ويقرأ كل منهم فكر غيره
قديرا فلا تخفى عليه السرائر

وقد كان الزهاوى فى هذا يقلد ولز وجول فيرن وغيرهم من المتنبئين .

بين الزهاوى والرصافى

عاصر الزهاوى ثلاثة شعراء فى العراق : الرصافى والكاظمى والجواهرى .. ولكنه ارتبط فى ذهن الكثيرين بالرصافى . ولعل مرجع ذلك الى أنهما كانا كفرسى رهان فى ميدان واحد . وقد وصف كل منهما بالجرأة على المعتقدات .

والواقع أن الزهاوى ولد سنة ١٦٨٣ توفى عام ١٩٣٦ وعاش ٧٣ عاما والرصافى ولد عام ١٨٧٥ أى بعد الزهاوى باثنى عشر عاما وعاش حتى سنة ١٩٤٥ وبلغ من العمر سبعين سنة .

وقد قيل كثيرا أن هناك خلاف بينهما ولكن الزهاوى قال غير هذا فى بعض قصائده ان الرصافى بالنسبة له كهارون الى موسى وقدم نفسه كعادته

وانى بمعروف لأعتز انه
أخو ثقة والحر يعتز بالحر
كلانا يريد الحق فيما يقوله
وانى واياه الى غاية نجرى
فخذ بيدى اللهم فى كل دعوة
وهذا أخى معروف فاشدد به أزرى

كما أشار الزهاوى فى رسالته (يناير ١٩٤٧) و مجلة (الكاتب المصرى) بقوله : أما النزاع بينى وبين الاستاذ الرصافى فليس اليوم كما يكبره المرجفون فكثيرا ما نتلاقى كصديقين .

ومعنى هذا ان هناك خلافا كان قائما فى فترة ما . ولست أعرف وجهة نظر الرصافى فى هذا الخلاف كما لم يصل الى أن الرصافى رثى الزهاوى بعد موته والواقع أن هناك فارقا وخلافا شديدين بين منهج كل من الشاعرين ومذهبهما فى الشعر والحياة . ولعل الزيات حين وصف الزهاوى بأنه كان قريبا من المعرى وأن الرصافى كان قريبا من أبى نواس كان يحكى الحقيقة .. فقد عرف أن الرصافى عاش حياة عارية جريئة كلها متع وخمر وجرأة على التقاليد .. بينما لم يعرف ذلك الزهاوى الذى كان مريضا .. وكان حريصا على الاحتفاظ بمظهر الوقار والكبرياء ليترك فى نفوس الناس دائما صورة الدعاة وأصحاب الرسالات .

ومما قاله الزيات أن الرصافى (١) تميز بالصراحة الجامحة والاستهتار البالغ . وانه هو نواس العراق فى حين كان أستاذه الألوسى يريده أن يخلف معروفا الكرخى الصوفى المعروف . ولعل اضطراب حياة الرصافى يرجع الى انه لم يجد ما كان يطمع فيه من مكان فى عهد فيصل مما دعاه الى أن يعلن الخصومة على الملك ووزرائه

١و٢ ـ الرسالة ٢٦ مارس ١٩٤٥

ولكن هذا لا ينقص من قدره كشاعر . يضعه النقاد بين الاوتاد الخمسة للشعر العربي الزهاوي والرصافي وشوقي وحافظ ومطران (١) وكان الدكتور طه حسين قد عقب بامارة الشعر التقليدي للعراق بعد وفاة شوقي (١٩٣٢) وقد علق الزيات على هذا بأن الزهاوي يفضل أن يكون في ساحة المجددين على أن يكون في طليعة المجددين .

وقيل ان الفرق بين الزهاوي والرصافي أن الزهاوي أديب عالم والرصافي فنان أديب .

الزهاوى فى رأى مؤرخيه

يروى الاستاذ الزيات أن الزهاوى كان يحضر فى آخر أيامه ندوة السيد صبحى الدفترى محافظ بغداد فى داره ضحى الجمعة من كل أسبوع يحضرها الوزراء والزعماء والادباء والقادة .. فيكون لكل طائفة منهم حلقة وحديث .. ولكن الزهاوى كان اذا تكلم أصغت اليه الدار وتحلقت عليه الندوة لان جميلا كان آية الله فى فكاهة الطبع وظروف المحاضرة وحلاوة الدعابة ورقة العبث . وكان له فى القاء النادرة لهجة واشارة وهيئة لايبرح سامعها مستطار اللب نشوان المشاعر من غرابة ما يرى وطرافة ما يسمع .

ولعل أبلغ مظاهر حياته هو ذلك القلق والتشاؤم والتعلمل ولا يشعر بالطمأنينة ينطلق يشكو دائما كل من يلقاه عن جمود الامة واغفال الدولة وكيد الخصوم والحاح المرض .. وكانت الحيوية تقبض من كلماته .. والعزيمة تصطرم فى نظراته . وهو كتلة من الاعصاب القوية المشدودة (١)

---

١ ـ وحى الرسالة ٢ الصادر عام ١٩٤٤

١ ـ الزيات ـ الرسالة ١٩٤٧

وهو بين الشكوى والزهو والطموح والقلق والتمرد يعيش حياته

يقول الزيات : كان الزهاوى يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجله فتتردد أصداؤها الموقظة فى ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب . وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى أوصل القلوب العربية فى مجاهل القرون القديمة بخيوط الهية غير منظورة ولولاها لما تهيأ العراق هذه الثروة .

وانه ساعد على انهاض العرب بوثوب فكره .. وعلى احياء الادب بوميض روحه .

وقد قال بعض مؤرخيه انه : راوية لا يبارى .. فكان صدره يعى من الاخبار والنكات والحوادث ما تضيق دونه المجلدات وكان له فى الرواية أسلوب خاص يأخذ بمجامع سامعيه . وانه كان فى أخريات أيامه يتردد على قهوة معروفة فى بغداد فيلتف حوله تلاميذه ومريدوه ويستمعون الى رواياته الشائقة وأحاديثه الممتعة ونوادره المضحكة ولا يقاطعونه ولا يجرءون على معارضته .

وقد عنى بعض المستشرقين والكتاب الاجانب بآثاره وكتب امين مكتبة الفاتيكان الكبرى : ان ما يحتوى عليه ديوان الاوشال هو أروع ما قرأناه فى الشعر العربى العصرى . وكتب المستشرق الدكتور ودمر الالمانى ترجمة حياته . وترجم قصيدة ثورة فى الجحيم وخمسين قصيدة من اللباب و٥٣ رباعية الى الالمانية وكتبت عنه بعض صحف برلين مقالات وابحاث .

وجملة قول نقاده ومؤرخيه : أنه حمـــل لواء التجديد فى الشعر العربى ودعا الى الاخذ بكل جديد من الاراء والافكار . وتحمل فى سبيل ذلك كل أذى فقد كانت بيئة العراق جمود وظلام وقد غمرتها الامية وطغى عليها الجهل . (١) وقد الف الناس الخضوع لجبروت الحكام والخضوع لبالى العادات . وما أضفاه المشعوذون عليها من أثواب التقديس والتعظيم .. وكان أى واحد يخرج على بعض التقاليد يتهم بالزندقة والكفر أو يتحدث عن شىء مما ابتـكره الغـرب حتى يرمى بالبـدعة والمروق فى الدين .

وقد نقد الاستاذ سليم طه رياعياته .. وقال انها ركيكة المعنى مهلهلة الاسلوب تعوزها الصناعة الفنية وتنقصها دقة التعبير الى جانب السبك فى النظم وحسن اختيار الكلمات .

ومن جماع ما يقال أن القلق كان ابرز معالم شخصيته .. وان ارتفاع السن والحياة الطويلة أعطته شيئا من القداسه . وان عواطفه وآرائه تبلورت بعد سن الاربعين . وانه لم ينظم شعرا فى الثورة العراقية وان والدته هى التى أورثته الصلابة ولصناد . وانه كان يحب المدح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعا .. وانه تأثر باحداث العراق والبلاد العربية وانه عاش حيـــاته شاكيا ضجرا قلقا . وكان التشاؤم والتقطيب والضـــيق والشكوى من أبرز مظاهر حياته .. وقيل ان علله وأمراضه التى لازمته طوال حياته لها أثرها فى اتجاهاته وكانت مصدر

١ ـ من مقال فى مجلة يونيه ١٩٤٩

فلسفه وجزعه واكتئابه وقالوا ان فيه تناقض واضطراب وعاطفته تغلب عقله أحيانا . ولا يستطيع أن يطوى صدره على الاوهام الخاصة .. وكان يحس بانه دون قدره وان لم يعط ماكان خليقا به .

وقد سبق الزهاوى جيله وتأثر بالتيارات الفكرية وعاش فى مرحلة انتقال واضطراب بين الدين والوطنية وبين العثمانية والحرية وبين الاستعمار والاستقلال وبين الترك والعرب .. وأبرز ما فيه ثباته على ما دعا اليه . وقد عرف « بليلى » فقد كانت (١) حلمه الذى صبا اليه وأمانيه التى حط عندها رجاله فهى فى الحقيقة وطنه العراق وهى فتاة أحبها أيام كان فى الاستانة .

وقد أطلق روفائيل بطى على الزهاوى اسم «فيلسوف بغداد فى القرن العشرين » وانه لم يحس فى حياته بالتقدير من وطنه ولا من الادباء .

وقال نقاده : ان شدة حمقه على المجتمع يرجع الى علة لازمته طوال حياته .والمرء شديد الانفعال فى مثل هذه الاحوال اذ يرى نفسه رازحا تحت ثقل الآلام حالة ان غيره ممن ليس أجدر منه بنعم الحياة يتمتع بما لذ وطاب ويسير فى الارض مرحا وعليه نجد شعره ضربا من الفلسفةالاجتماعيةوقد أدركته علته فى النخاع الشوكى وهو فى منتصف العقد الثالث من عمره

١ ــ ناصر الحانى فى محاضراته .

فتبعتها علل أخرى لم يكن الشلل الا بعضها . لهذا كان يسير دائما راكبا وبرفقته خادمه الامين .. فاذا ترجل توكأ عليه حتى يصل الى مجلسه .

وكان الزهاوى يميل الى البساطة في كل شيء ويتجنب كل كل ما يشف عن العظمة والفطرسة وكان بيته رمزا على بساطه عيشه . وكانت حديقة منزله على صغر مساحتها دليلا على حسن ذوقه وشدة ميله الى الطبيعة .

وكان الزهاوى يبسط آراءه بكل صراحة ولا يعبأ بانتقاد يوجه اليه وكان شديد الانفعال ينتقل من الغضب الى الفرح في طرفة عين . ويقول ان الحياة أقصر من أن يضيعها المرء فيما يسوء .

وكان الزهاوى شديد الولع بمشاهدة السينما ويحب مصر وأدبها وفنها وتمثيلها وغنائها .

ويقول اسماعيل أدهم في دراسة قصيرة له عن الزهاوى انه تأثر بشبلي شميل فبعد أن كان يؤمن بالدين أثارت هذه الفصول في نفسه روح الجرأة على المقدسات وانه تأثر بالوهابية تأثيرا عكسيا فرد على دعاتها في كتاب بعنوان : الفجر الصادق في الرد على منكرى الكرامات والخوارق .

وان رأيه في المرأة هو رأى أفلاطون الذى يرى ان المرأة

وان كانت أقل فى الاستعداد الطبيعى الا انهـــا تقارب من استعداد الرجل ٠

وقال اسماعيل أدهم ان أبرز معالم شعر الزهاوى اتجاهه العقلى فى الشعر بعيدا عن الخيال والتأمل الفلسفى وانه حمل الشعر رسالة العلم ٠ وقد جمع بين العقلية العلمية مع القدرة على النظم ٠ وكان فى احساسه الشعور يسبق الزمن ٠

الادب العراقي في عصره

كان العراق في العصر السابق لاعلان الدستور العثماني ٠٠ يعيش في جو مظلم حالك من دسائس السلطان عبد الحميد٠ لم يكن هناك من يجرؤ على كلمات الحريه والاستقلال وفي خلال هذا العهد هاجر جميع أحرار الفكر الى مصر وتركوا البـــلاد التي تحكمها تركيا العثمانية ٠٠ واكتفى الزهـاوى بأن ينظم نفثات قلبه ويرسل بها الى المؤيد والصحف المصريه مهاجما عهد عبدالحميد ومطالبا بالحرية والسفور ٠ فلما أعلن الدســتور سنة ١٩٠٨ قوبل ذلك في العراق بالفرح الشديد والتهليـل أملا في الفرص التي سيتيحها الدستور للناس في حرية القول والرأى والنشر ٠ وكان الزهاوى في مقـــدمة الذين اهتزوا لهذا الحدث الكبير ٠

وبدأ الادب العراقي يدخل في دور جديد حيث انبعثت منه حركة أدبية ضخمة ٠ كان قوامها مدرسة الالوسى في بغـداد وعميدها محمود شكرى الالوسى ٠ ومفتدى الشيخ أمين غالى في البصرة ومكتبه دير الاباء الكرمليين ببغداد ٠

كما حافظت النجف على استقلالها الادبى وتراثها الروحى فما زالت دار علم ومدرسة للثقافة فيها أسر قديمـة توارثت

طلب العلم والادب خلفا عن سلف واساتذة ممتازون فى المنقول والمعقول ولها مكتبات غنية بما ينشده الباحث والاديب (١)

وقد أقامت الطبقات الادبية التى ظهرت فى هـذا العصر أدبها على أنقاض أدب النجف الطبطبائى والفحام والنحـوى والاعيسم . ومن شعراء الحلة جمهور الحلى ومحسن الخضرى وسعيد الحبوبى .

وقل فى هذا العصر المدح فى الشعر وكثر الوصف . واتجه الشعراء الى وحدة الموضوع فى قصـائدهم بدلا من تعـدد المواضيع . وشاع الشعر السياسى والاجتماعى .

ولم تنس العراق أدبها التقليدى الرائع : الادب العـلوى الحسينى الذى يحمل دعوة الكفاح والجهاد .. ويرسم صورة البطولة والدفاع عن النفس والعقيدة وذكر امجاد الاسـلام والعراق ولعروبة وقد كان للنهضة الادبية الحديثة فى العراق أثره الواضح فى القصـائد والملامح الجديدة التى تحدثت عن التضحية والبطولة .

ولم يلبث العراق بعد قليل ان ثار ثورة عارمة مجيـدة تحدث عنها القاصى والدانى سـنة ١٩٢٠ كانت بداية عصر التحرر والوطنية .. انتهت معها معالم الاسـتبداد العثمانى وظهرت القومية العربية جهيرة حية واضحة . وبدأت مرحلة

---

١ محمد رضا الشبيبى : بحث فى المجمع اللغوى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨

جديدة من مراحل الكفاح لمقاومة الاحتلال البريطاني وارساء قواعد حياة وطنية جديدة قوامها الدستور والنيابة والعهد الجديد الذى كان على رأسه فيصل ومن بعده غازى وفى خلال هذا التاريخ الطويل كان الزهاوى والرصافى والجواهرى والكاظمى أبرز شعراء الفترة .

وقد كانت مظاهر الادب العراقى كما صوره الاستاذ الشبيبنى جزالة عربية فى الالفاظ ومحاكاة للقدماء وجمود على الفنون الشعرية المألوفة حتى جاء الزهاوى والرصافى فجددا الشعر ودفعاه دفعة قوية الى الامام حيث حرراه من بعض قيوده فاتجه الادب العراقى الى الواقعية وكان هذا تطورا طبيعيا حيث زالت نظم مألوفه فى الحكم وحلت بدلا منها أخرى استتبع تغيرا فى أساليب الفكر والنظم والكتابة .

وقد كان شعر الزهاوى والرصافى والكاظمى على الاختلاف البعيد فى اتجاهاتهم وأساليبهم ترجمانا لحياة العراق وما يجيش فى نفوس أهله وما وقع فيه من أفراح ومآسى .

ومن ناحية اللفظ يتجلى فى الشعر العراقى رصانة فى مبناه وصفاء ديباجة وبيان مشرق .. ولعل شعرا فى العالم العربى لم تقم فيه دعوة قوية الى التجديد والتطور والتحامل على القديم مثلما حدث للشعر العراقى .

يقول الدكتور زكى مبارك أن الادب العراقى الحديث انتفع بثلاثة ينابيع : أولهما الادب الفارسى .. والادب التركى والادب المصرى هذا بالاضافة الى الادب العربى القديم .

وقد نظم الزهاوى الشعر بالفارسية يوم ذهب الى ايران للاشتراك في احياء ذكرى الفردوس .

وقد عرف الشعر العراقى الشاعر الفيلسوف فى الزهاوى والشاعر الاديب فى الرصافى وفى الشاعر العربى التقليدى فى الكاظمى وفى شعر الموشحات فى الحبوبى .

ويتميز الادب العربى بالحديث عن الامة العربية ويرسم صورا كثيرة من الشام ومصر .

فكثير من أدباء العراق عاشوا فى مصر . والاخوانيات من أبرز مظاهر الادب العراقى فهم يتراسلون بالرسائل والقصائد

وقال زكى مبارك أن شعراء العصر فريقان .. فريق يترسم خطى شعراء الجيل فى الماضى القريب ويجرى على سننهم المعروف فى المذاهب والاساليب مع شىء من التجديد : أحمد الصافى والحبوبى واليعقوبى والجواهرى والمفلد والخطيب والجعفرى وشعراء الرابطة العلمية الادبية فى النجف والفريق الاخر من شعراء الشباب الذى يميل الى مجاراة الغربيين ويحاول أن يتعاطى النظم على طريقتهم المعروفة وعددهم قليل .

وللادب العراقى الحديث فى مراحله فترات من أظهرها جنوحه الى التشاؤم والشكوى . ووصف مظاهر البؤس والحرمان فى كثير من الاحيان ومن مميزاته نزوع ظاهر الى العنف فى مقاضاة الطبقة الحاكمة والدفاع عن حقوق الطبقة المحكومة .

وفى ميدان النثر طائفة من الباحثين والعلماء المتقطعين

للدراسات الفكرية يؤلفون ويدرسون وينشرون ولهم مؤلفات وتصانيف أبحاث منهم بهجت الاثري ومصطفى جواد وعباس غزاوي وجواد علي وأحمد سوسه وكوركيس عواد

وقامت الصحافة العراقية بدور ضخم في سبيل الحركة الوطنية العراقية وكان لكتابها جهد ملحوظ ويقول زكي مبارك أن المقالة القاسية في جريدة عراقية .. فهي تزلزل احساس الجمهور أعنف الزلزال . وقد أغلقت جريدة عراقية لانها كتبت مقالا عنوانه الفرات الهائج لانها تناست الفرق بين الهياج والطغيان .. فالهياج يضاف الى السكان أما الطغيان فيضاف الى الماء .

وهكذا يبدو الزهاوي بعيد الاثر في أدب العراق . اشترك فيه أكثر من خمسين عاما في ثلاث عهود .. قبل الدستور وبعده وفي عهد الاستقلال والوطنية . ونافح عن العراق والعرب والحرية الفكرية وطالب بتحرر المرأة . وهز قوائم المجتمع العربي بدعوته الحرة وجرأته الخالصة واندفاعاته المتحررة في تجديد نظم الشعر وتوجيهه من التقليد والعناية باللفظ .. وموضوعات الشعر القديمة الى الاقتحام في ميدان السياسة والاجتماع والاختراعات الحديثة وحمل لواء التجديد .

وقد واجه المحافظون الزهاوي بالنقد وقاوموا دعوته وأسلوبه ولكن الزمن تغير وأصبح الزهاوي مظهرا واضحا من مظاهر الادب العراقي وقمة من قممه ومفخرة من مفاخره . فقد كتب للادب العراقي صفحة مشرقة ومثل في الادب العربي المعاصر

زاوية حية .

وحق ما قال الزهاوى أنه سيأتى اليوم الذى يدرك فيه المؤرخون مدى عظمة الدور الذى قام به وفى العراق اليوم تلاميذ الزهاوى وشباب العراق الذين غنى لهم الزهاوى سنوات وسنوات يسيرون على نهجه ويؤمنون به .

واليوم وقد مضى على موت الزهاوى بضعة وعشرين سنة فقد بطلت الخصومة وزال الخلاف وآمن العراق بأن الزهاوى كان علما من أعلام الحرية فى تاريخه وانه دفع العراق الى الامام بقوة .. وأن مناته هى مئات البشر التى لا تتخلف مع الطبائع الانسانية لاسيما بالنسبة للزمن الذى عاش فيه وما كان فيه من ظلام واستبداد . وبالنسبة لحياته الطويلة المديدة ..

واليوم نرى الزهاوى وهو يمثل ركنا قويا من أركان الادب العربى المعاصر وجانبا هاما من جوانبه بالاضافة الى زملائه وأترابه شوقى وحافظ ومطران والرصافى والكاظمى

واليوم حين أتم هذا البحث أذكر انى أعددت بحثا عن الزهاوى سنة ١٩٣٩ وانا فى مطلع الحياة الادبية وقد قلت فى مقدمة هذا البحث : ما عشقت فى حياتى قدر رغبتى فى الكتابة عن هذا الرجل الشاعر الذى يغلب سحر كلمة على روحى فيردنى عن الحياة الى أجواء تسمو وتسمو حتى تبلغ عنان السماء .

وفى سنة ١٩٥٤ كتب عدد من الدراسات عن الأدباء

المعاصرين (١) من بينها دراسة عن الزهاوى أنقل منهـا ما قد يكون مكملا لهذه الدراسة من جوانب حياته

ظل الزهاوى سابقا لعصره متهما بين أهل جيـــله وبلـده بالزندقة والجنون والالحاد . وقد منحه العمر الطويل وتقلب الزمن حيث عاش الى سن السبعين مسحة من القداسةالرائعة خاصة بعد أن تحطت العراق مرحلة الانتقال . وقد اضطر فى ابان محنته الى بيع معظم كتبه ولعل دفاعه عن حرية المـــرأة متصل الى حد كبير بأثر المرأة فى حياته وفنه وقد أثرت عنه فى ابان اقامته فى استانبول مغامرات وضيئة حيث أطلق لهواه العنان بعد أن فارق بيئة العراق . ولكنه على ما طبع عليه من قلق لم يعرف الحب المديد أو يالف العشق الطـــويل المدى . ويبدو أن الزهاوى فى الحب أشبه بشـــوقى فهو على طبيعته المتكبرة لا يصل الى أعماق الحب ولا يسبر غوره وهو ليس من من الروحيين الغزليين وأقرب الى الواقعية الادمية ولا تجـد عنده تلك الحرارة الدافقة فى العاطفة

ولعله وجد فى مصر أيضا سبيلا الى عاطفة أو حب . وهو فى كل أحواله عن المرأة والدعوة الى تحريرها ليس الا داعية بالتعلم .. اذ انه لم يستجب لذلك فى حياته الخاصة . فقـد كان الزهاوى زوجا وكان زوجته متحجبة . وقد وصفت هـذه الحياة بانها كانت هادئة مرضية لنفسه . وقد تزوج الزهاوى

---

١ ــ كتاب أضواء على حياة الادباء المعاصرين .

في سن مبكرة . وأمكن أن تهيىء له زوجه اسباب الراحة النفسية على ما به من شذوذ .. اذ كانت خير معز لي في المحن الفكرية والسياسية التي تعرضت لها .. وفي خلال سنوات مرضه باعصابه فقد كانت تعنى به عناية الأم بطفلها وتهتم بهندامه وتنظيم مكتبته وقد سافرت معه ابان سفره الى مصر وسوريا . ومن أبرز معالم حياة الزهاوي الخاصة انه لم يرزق أولادا ولعل ذلك كان مصدرا من مصادر اضطرابه النفسي .

وقد وصفه بعض النقاد بانه ناظم وليس بشاعر وقال عنه الناقد يوسف جورج : انه ليس شاعرا . اذ أن الشاعر يعتمد على العاطفة والخيال قبل العقل . والزهاوي كان لا يبالي العواطف والخيال ابدا .

وبعد فالزهاوي قوة ادبية كبيرة في تاريخ العراق الذي احبه وفي تاريخ الادب العربي المعاصر .. وهو علم من أعلام الفكر والشعر والفلسفة العربية الحديثة يمثل جانبا واضحا هو الحرية الفكرية والتجديد والدعوة الى الاصلاح الاجتماعي .. رحمه الله .

أنور الجندي

الشركة العامه للبترول

١٤ شارع سليمان باشا القاهرة

تعلن الشركة عن مناقصة عامة لعمليات نقل مهمات ومعدات — لمدة عام — ويمكن الحصول على دفتر الاشتراطات من إدارة العمليات بالشركة نظير دفع رسم قدره ٢ جنيه - أثنين جنيه تقبل العطاءات حتى ظهر يوم الاثنين ٢٩ فبراير سنة ١٩٦٠ ؟

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
٣٠ شارع منصور ـ القاهرة
ص.ب ٢٣٩٨